

## سورة المائدة

هذه السورة تسمى سورة المائدة وسورة العقود وسورة المنقذة ، وهي مدنية بناء على المشهور من أن المدني ما نزل بعد الهجرة ولو في مكة ، وقد روى في الصحيحين عن عمر : أن قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم الخ نزلت عشية عرفة يوم الجمعة عام حجة الوداع » .

وآياتها مائة وعشرون في العدالكوفي ، ومائة وثمان وعشرون في العد الحجازي ، ومائة وثلاث وعشرون في العد البصرى .

ووجه التناسب بينها وبين ما قبلها من وجوه :

(١) إن سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحا وضمنا ، فالصريح عقود الأنكحة والصداق والحلف والمعاهدة والأمان ، والضمنى عقود الوصية والوديعة والوكالة والإجارة .

(٢) إن سورة النساء مهدت لتحريم الخمر وسورة المائدة حرمتها البتة فكانت متممة لشيء مما قبلها .

(٣) إن معظم سورة المائدة في محاجة اليهود والنصارى مع ذكر شيء عن المنافقين والمشركين ، وقد تكرر ذكر ذلك في سورة النساء وأطيل به في آخرها .

ووجه تقديم النساء وتأخير المائدة أن الأولى بدأت بيا أيها الناس وفيها الخطاب بذلك في مواضع ، وهذا أشبه بالتنزيل المكي ، والثانية بيا أيها الذين آمنوا وفيها الخطاب بذلك في مواضع ، وهذا أشبه بالتنزيل المدني المتأخر عن الأول .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَّةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْبَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١)

يَأْيَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا  
 الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ،  
 وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ  
 الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى  
 الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢) .

### شرح المفردات

الوفاء والإيفاء: الاتيان بالشيء وافيا لا نقص فيه، قال تعالى: «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ  
 إِذَا كِلْتُمْ» والعقود: واحدها عقد، وهو في الأصل ضد الحل ثم أطلق على الجمع بين  
 أطراف الشيء وربط بعضها ببعض، ويستعمل في الأجسام الصلبة كعقد الحبل  
 وعقد البناء، ويقال عقد اليمين وعقد النكاح أى أبرمه كما قال تعالى «وَالَّذِينَ  
 عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ» والبهيمة: ما لا ينطق له لما فى صوته من الإبهام، وخص فى العرف  
 بما عدا السباع والطيور، والأنعام: البقر والإبل والغنم، الحرم: جمع حرام، وهو  
 الحرم بالحج أو العمرة، وشعائر الله معالم دينه، وغلب فى مناسك الحج واحدها  
 شعيرة، والهدى، وهو ما يهذى إلى الكعبة من الأنعام ليذبح هناك، وهو من  
 النسك، والقلائد: واحدها قلادة وهو ما يعلق فى العنق، وكانوا يقلدون الإبل من  
 الهدى بتعل أو حبل أو لحاء شجر ليعرف فلا يتعرض له أحد، آمين أى قاصدين،  
 وفضلا أى ربحا فى تجارتهم، ورضوانا أى رضا من الله يحول بينهم وبين عقوبته  
 فى الدنيا، يجر منكم: من جرمه الشيء أى حمله عليه وجعله يجرمه أى يكسبه ويفعله،  
 وأصل الجرم قطع الثمرة من الشجرة، والشنان: البغض مطلقا، وألذى يصحبه التفرز  
 من المبعوض .

## الإيضاح

(يأيتها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) روى عن ابن عباس : أن المراد بالعقود عهود الله التي عهد بها إلى عباده أى ما أحل وما حرم وما فرض وما حدّ في القرآن كله لا غدر فيها ولا نكث ، وقال الراغب : العقود ثلاثة أضرب عقد بين الله وبين العبد ، وعقد بين العبد ونفسه ، وعقد بينه وبين غيره من البشر .

وكل واحد منها إما أن يوجه العقل الذى أودعه الله في الإنسان ويتوصل إليه بيديه العقل أو بأدنى نظر ويدل على ذلك قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا بَلَىٰ » وإما أن يوجه الشرع وهو ما دلنا عليه كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

وأساس العقود في الإسلام هو هذه الجملة (أوفوا بالعقود) أى إنه يجب على كل مؤمن أن يفي بما عقده وارتبط به من قول أو فعل كما أمر الله ما لم يحرم حلالاً أو يحلل حراماً كالعقد على أكل شيء من أموال الناس بالباطل كالربا والميسر (القمار) والرشوة ونحو ذلك .

ثم شرع يفصل الأحكام التي أمر بالإيفاء بها وبدأ بما يتعلق بضروريات معاشهم فقال :

(أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم) أى أحل الله لكم أكل البهيمة من الأنعام وهى الأزواج الثمانية المدودة في سورة الأنعام وألحق بها الطيأ وبقر الوحش ونحوهما ، إلا ما حرم فيما سيتلى عليكم في الآية الثالثة من هذه السورة (حرمت عليكم الميتة والدم) الخ .

(غير محلى الصيد وأنتم حرم) أى أحلت لكم بهيمة الأنعام حال كونكم غير محلى الصيد الذى حرمه الله عليكم : أى لا تجمعوه حلالاً باصطياده أو الأكل منه وأنتم محرمون بالحج أو العمرة أو كليهما أو داخلون في أرض الحرم فلا يحل الصيد لمن كان

في أرض الحرم ولو لم يكن محرما ولا للحرم بالحج أو العمرة وإن كان في خارج حدود الحرم بأن نوى الدخول في هذا النسك وبدأ بأعماله كالتلبية ولبس الخيط .  
والخلاصة — أحلت لكم هذه الأشياء غير محلي الاصطياد ولا أكل الصيد في الإحرام .

(إن الله يحكم ما يريد) الحكم القضاء أى إن الله جل ثناؤه يقضى في خلقه ما يشاء من تحليل ما أراد تحليله وتحريم ما أراد تحريمه كما شاء على حسب الحكم والمصالح التي يعلمها سبحانه فأوفوا بعقوده وعهوده ولا تنكثوها ولا تنقضوها .  
(يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله) شعائر الله ما أراد جعله أمارات تعلمون بها الهدى من الضلال كمناسك الحج وسائر فرائض دينه من حلال وحرام وحدود حدها لكم .

والمعنى — يأيها الذين آمنوا لا تجعلوا شعائر دين الله حلالا لكم تتصرفون فيها كما تشاءون بل اعملوا بما بينه لكم ، ولا تمهاونوا بحرمتها وتحولوا بينها وبين المتنسكين بها وتصدوا الناس عن الحج في أشهر الحج .

(ولا الشهر الحرام) المراد به هنا ذو القعدة وذو الحجة والحرم أى ولا تحلوا الشهر الحرام بأن تقاتلوا فيه أعداءكم من المشركين كما روى عن ابن عباس وقتادة .  
(ولا الهدى) أى ولا تحلوا الهدى الذي يهدى إلى البيت الحرام من الأنعام للتوسعة على من هناك من عاكف وباد تقربا إلى الله ، وذلك بأن تمنعوا بلوغه محله من بيت الله بأخذه غصبا وذبحه أو سرقة أو حبسه عند من أخذه .

(ولا القلائد) ولا تحلوا ذوات القلائد من الهدى وهي البدن ، وكأنه قال لا تحلوا الهدى مقلدا ولا غير مقلد ، وخص المقلد بالذكر لأنه أكرم الهدى وأشرفه .  
(ولا آمين البيت الحرام) أى ولا تحلوا قتال قاصدى البيت الحرام لزيارته ، تصدوهم عن ذلك بأى وجه كان .

(يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا) أى يطلبون ربحا فى التجارة ورضا من الله يحول بينهم وبين عقوبته فى الدنيا لئلا يحل بهم ما حل بغيرهم فى عاجل دنياهم .  
وهذا كلام مع المشركين ، كما روى عن قتادة أنه قال : هم المشركون يبتغون فضل الله ورضوانه فيما يصلح لهم دنياهم ، وفى رواية أخرى عنه : والرضوان الذى يبتغون أن يصلح لهم معاشهم فى الدنيا وألا يعجل لهم العقوبة .  
( وإذا حلتم فاصطادوا ) أى إذا خرجتم من إحرامكم بالحج أو العمرة أو من أرض الحرم فاصطادوا إن شئتم فإنما حرم عليكم الصيد فى أرض الحرم وفى حال الإحرام فقط .

وهذا تصريح بمفهوم قوله فى الآية السابقة ( غير محلى الصيد وأتم حرم ) .  
( ولا يجزئكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ) أى ولا يمانعكم بغض قوم وعداوتهم على أن تعتدوا عليهم لأنهم صدوكم عن المسجد الحرام ، وقد كان المشركون صدوا المؤمنين عن العمرة عام الحديبية ، فهى المؤمنون أن يعتدوا عليهم عام حجة الوداع وهو العام الذى نزلت فيه هذه السورة لأجل اعتدائهم السابق .  
ولما كان اعتداء قوم على قوم لا يحصل إلا بالتعاون قفى على النهى عن الاعتداء بقوله :

(وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) البر: التوسع فى فعل الخير ، والتقوى : اتقاء ما يضر صاحبه فى دينه أو دنياه، والإثم: كل ذنب ومعصية ، والعدوان: تجاوز حدود الشرع والعرف فى المعاملة والترويج عن العدل فيها ، وفى الحديث « البر حسن الخلق ، والإثم ما خاك فى النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس » رواه مسلم وأصحاب السنن ، وروى أحمد والداريمى عن وابصة بن معبد الجهنى أنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « جئت تسأل عن البر والإثم ، قلت نعم » وكان قد جاء لأجل ذلك ، فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما فى نفسه وأجابه

فقال : « استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك » .

والأمر بالتعاون على البر والتقوى من أركان الهداية الاجتماعية في القرآن ، إذ يوجب على الناس أن يعين بعضهم بعضا على كل ما ينفع الناس أفرادا وجماعات في دينهم ودنياهم وعلى كل عمل من أعمال التقوى التي يدفون بها المفاسد والمضار عن أنفسهم .

وقد كان المسلمون في الصدر الأول يتعاونون على البر والتقوى بدون حاجة إلى ارتباط بعهد كما تفعله الجماعات اليوم فإن عهد الله وميثاقه كان مغنيا لهم عن غيره ، ولكن لما نكثوا ذلك العهد صاروا في حاجة إلى تأليف هذه الجماعات لجمع طوائف المسلمين وحملهم على إقامة هذا الواجب ( التعاون على البر والتقوى ) .

وقلما ترى أحدا الآن يعينك على عمل من أعمال البر إلا إذا كان مرتبطا بعهد معك لغرض معين ومن ثم كان تأليف الجماعات مما يتوقف عليه أداء هذا الواجب غالبا .

( واتقوا الله إن الله شديد العقاب ) أى اتقوا الله بالسير على سننه التي بينها لكم في كتابه وفي نظم خلقه حتى لا تصيبكم عقابه بالإعراض عن هدايته ، فهو شديد العقاب لمن لم يتق الله باتباع شرعه ومراعاة سننه في خلقه ، إذ لا محابة ولا هوادة في عقابه ، فهو لم يأمر بشيء إلا إذا كان نافعا ولم ينه عن شيء إلا إذا كان ضارا ، وكذلك بعدم مراعاة السنن لأن لذلك تأثيرا في خلق الإنسان وعقائده وأعماله وكل ذلك مما يوقعه في الغواية وينتهي به إلى سوء العاقبة .

وهذا العقاب يشمل عقاب الدنيا والآخرة كما جاء في بعض الآيات التصريح بذلك ، وفي بعضها التصريح بأحدهما كقوله في عذاب الأمم في الدنيا « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَحَلْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلِيَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ  
وَالْمُنْخَضِقَةُ وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيجَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ  
وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ، الْيَوْمَ يَئِسَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ  
لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا،  
فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)

### الإيضاح

هذا شروع في بيان المحرمات التي أشير إليها في أول السورة بقوله (إلا ما يتلى عليكم) وهي عشرة أنواع :

(الأول الميتة) ويراد بها عرفا مامات حتف أنه أي بدون فعل فاعل، ويراد بها في عرف الشرع مامات ولم يذكر الإنسان لأجل أكله، والحكمة في التحريم :

(١) استقدار الطباع السليمة لها .

(٢) إن في أكلها مهانة تنافي عزة النفس وكرامتها .

(٣) الضرر الذي ينشأ من أكلها سواء كانت قد ماتت بمرض أو شدة ضعف

أو بجرائيم (ميكروبات) انحلت بها قواها .

(٤) تعويد المسلم ألا يأكل إلا مما كان له قصد في إزهاق روحه .

(الثاني الدم) والمراد به الدم المسفوح : أي اللائع الذي يسفح ويراق من الحيوان

وإن جمد بعد ذلك ، بخلاف التجمد طبيعة كالطحال والكبد وما يتخلل اللحم عادة

فإنه لا يسمى مسفوحا .

وحكمة تحريم الدم الضرر والاستقدار أيضا ، أما الضرر فلأنه عسر الهضم جد

العسر ويحمل كثيرا من المواد العفنة التي تنحل من الجسم ، وهي فضلات لفظتها

الطبيعة كما تلفظ البراز ونحوه واستعاضت عنها بمواد جديدة من الدم ، وقد يكون فيه جراثيم بعض الأمراض المعدية وهي تكون فيه أكثر مما تكون في اللحم ومن أجل هذا اتفق الأطباء على وجوب غلي اللبن قبل شربه لتقتل ما عسى أن يكون قد علق به من جراثيم الأمراض المعدية .

( الثالث لحم الخنزير ) لما فيه من الضرر والاستقذار للملازمة للقاذورات ورغبته فيها ، أما ضرره فقد أثبتته الطب الحديث ، إذ أثبت أن له ضررا يأتي من أكله القاذورات ، فإن ذلك يولد الديدان الشريطية كالودودة الوحيدة ودودة أخرى تسمى الشعرة الجلزونية وهي تنشأ من أكله الفيران الميتة ، كما أثبت أن لحمه أعسر اللحوم هضما لكثرة الشحم في أليافه العضلية ، وأن المواد الدهنية التي فيه تمنع وصول عصير المعدة إلى الطعام فيعسر هضم المواد الزلالية وتتعب المعدة آكله ويشعر بثقل في بطنه واضطراب في قلبه ، فإن ذرعه التيء قذف هذه المواد الخبيثة خف ضرره ، وإلتهيجت المعدة وأصيب بالإسهال ، ولولا أن العادة قد جرت بتناول السموم أكلا وشربا وتدخيننا ولولا ما يعالجون به لحم الخنزير لتخفيف ضرره لما أمكن الناس أن يأكلوه ولا سيما أهل البلاد الحارة .

( الرابع ما أهل غير الله به ) الإهلال رفع الصوت ، يقال أهل فلان بالحج إذا رفع صوته بالتلبية له ، واستهل الصبي إذا صرخ عند الولادة والمراد به ما ذبح على ذكر غير الله تعالى من الخلوقات التي يعظمها الناس تعظيما دينيا ويتقربون إليها بالدبائح ، وكانوا يذبحون لأصنامهم فيرفعون أصواتهم بقولهم باسم اللات أو باسم العزى . وحكمة التحريم في هذا أنه من عبادة غير الله ، فالأكل منه مشاركة لأهله ومشايبة لهم عليه وهو مما يجب إنكاره لإقراره .

ويدخل في ذلك ما ذكر عند ذبحه اسم نبي أو ولي كما يفعل بعض أهل الكتاب وجهلة المسلمين الذين اتبعوا من قبلهم وساروا على نهجهم باعما فباعا ووذراعا فذراعا .

(الخامس المنخفة) وقد روى ابن جرير في تفسيرها أقوالاً، فمن السدى أنها التي تدخل رأسها بين شعبتين من شجرة فتختنق فتموت، وعن ابن عباس والضحاك هي التي تختنق فتموت، وفي رواية عن الضحاك هي الشاة توثق فيقتلها خناقها، ثم قال: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: هي التي تختنق إما في وثاقها أو بإدخال رأسها في الموضع الذي لا تقدر على التخلص منه فتختنق حتى تموت.

وهي بهذا المعنى من قبيل ما مات حنف أنفه من حيث إنه لم يمت بتذكية الإنسان له لأجل أكله فهي داخلة في الميتة، وإنما خصها بالذكر لأن بعض العرب في الجاهلية كانوا يأكلونها، ولثلاث يشبه فيها بعض الناس لأن لموتها سبباً معروفاً. والعبرة في الشرع بالتذكية التي تكون بقصد الإنسان لأجل الأكل حتى يكون وثاقاً من صحة البهيمة التي يريد التغذى بها.

(السادس الموقوذة) الوقد: شدة الضرب، وشاة وقيد وموقوذة، والموقوذة هي التي تقتل بعضاً أو بججارة لاحد لها فتموت بلا ذكاة، وكانوا يأكلونها في الجاهلية. والوقد يحرم في الإسلام لأنه تمذيب للحيوان، قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتل، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته» رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن.

ولما كان الوقذ محرماً ما قتل به، وهي تدخل في عموم الميتة على الوجه الذي ذكرنا فإنها لم تذكى شرعية، ويدخل في الموقوذة مارى بالبندق (وهو نحو كرة من الطين تجفف ويرى بها بعد يبسها) لما روى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الخذف (الرمي بالحصى والخرف وكل يابس غير محدد سواء رمى باليد أو الحذفة أو المقلع) وقال: إنه لا يفتق العين ولا ينكح العدو ولا يحرز صيدا ففي هذا الحديث نص على العلة وهو أنه تمذيب للحيوان وليس سبباً مطرداً ولا غالباً للقتل.

أما بندق الرصاص المستعمل الآن وما في حكمه فإنه يصيد وينكأ، ولذا أفتى العلماء بجواز الصيد به .

( السابع المتردية ) وهي التي تقع من مكان مرتفع كجبل ، أو في منخفض كبير ونحوها فتموت وهي في حكم الميتة لأنه لم يكن للانسان عمل في إمامتها ولا قصد به إلى أكلها .

( الثامن النطيحة ) وهي التي تنطحها بهيمة أخرى فتموت من النطاح من غير أن يكون للانسان عمل في إمامتها .

( التاسع ما أكل السبع ) وهو ما قتله بعض سباع الوحوش كالأسد والذئب والنمر لياأكله ، وأكله منه ليس بشرط للتحريم إذ يكفي فرسه إياه وقتله في تحريمه .

وكان العرب في الجاهلية يأكلون بعض فرائس السباع ، ولكنه مما تأتفه أكثر الطباع، وأكثر الناس يعد أكله ذلة ومهانة وإن كانوا لا يخشون منه ضررا .

( إلا ما ذكيتم ) أي إلا ما أدركتموه وفيه بقية حياة ويضطرب اضطراب المذبوح فذكيتموه وأمامته شرعية لأجل أكله - وهو استثناء من جميع ما تقدم

ذكره من المحرمات سوى ما لا يقبل التذكية من الميتة والدم والخنزير وما أكل السبع ، وذلك هو - ما أهل لغير الله به والمنخقة والموقودة والمتردية والنطيحة .

وخلاصة المعنى - ولكن لا يحرم عليكم ما ذكيتموه بفعلكم مما يقبل التذكية ، ويكفي في صحة إدراك ذكاة ما ذكر أن يكون فيه رمق من الحياة بأن يطرف بعينه أو يضرب بذنبه ، وقد قال على كرم الله وجهه : إذا أدركت ذكاة الموقودة والمتردية والنطيحة وهي تحرك يدا أو رجلا فكلها .

( العاشر ما ذبح على النصب ) والنصب واحد الأنصاب ، وهي حجارة كانت حول الكعبة عددها ثلاثمائة وستون حجرا وكان أهل الجاهلية يذبحون عليها ، ويعدون ذلك قربة .

ومن هذا تعلم أن ما ذبح على النصب هو من جنس ما أهل به لغير الله من حيث أنه يذبح بقصد العبادة لغير الله تعالى ، وخص بالذكر لإزالة وهم من يتوهم أنه قد يحل

لقصد تعظيم البيت الحرام إذا لم يذكر اسم غير الله عليه ، وهو من خرافات الجاهلية التي جاء الإسلام بمحوها .

وخلاصة ما تقدم - إن الله تعالى أحل أكل بهيمة الأنعام وسائر الطيبات من الحيوان ، مادب منها على الأرض ، وما طار في الهواء ، وما سبح في البحر ، ولم يحرم إلا الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله .

وقد كان بعض العرب يذبح الحيوانات على اسم غير الله وهو شرك وفسق ، وبعضهم يأكل الميتة ويقول لم نأكلون ما قتلتهم ولا نأكلون ما قتل الله ؟ ولكن في هذا مظنة الضرر ، وفيه مهانة للنفس ، ومن ثم جعل الله حل أكل المسلم لذلك منوطاً بإتمام موته والإجهاز عليه بفعله هو ليدكر اسم الله عليه فلا يكون من عمل الشرك ، ولثلاث يقع في مهانة أكل الميتة وخسة آكلها بأكله المنخنة والموقوذة والمتردية والنطيحة وفريسة السبع - إلى ما في الموقوذة من إقرار الواقذ على القسوة وظلم الحيوان وذلك محرم شرعاً .

ثم أضاف إلى محرمات الطعام التي كان أهل الجاهلية يستحلونها عملاً آخر من أعمالهم وخرافاتهم فقال :

( وأن تستقسموا بالأزلام ) الأزلام واحدها زلم ، وهو قطعة من الخشب على هيئة السهم ، لكن لا يركب فيه النصل الذي يجرح ما يرمى به من صيد وغيره ، وكانت الأزلام ثلاثة ، كتب على أحدها « أمرني ربي » وعلى الثاني « نهاني ربي » والثالث غفل ليس عليه شيء فإذا أراد أحدهم سفراً أو غزواً أو زوجاً أو بيعاً أو نحو ذلك أجال « حرك » هذه الأزلام ، فإن خرج له الزلم المكتوب عليه « أمرني ربي » مضى لما أراد ، وإن خرج المكتوب عليه « نهاني ربي » أمسك عن ذلك ولم يمض فيه ، وإن خرج الغفل الذي لا كتابة عليه أعاد الاستقسام ، وهو : طلب معرفة ما قسم له دون ما لم يقسم بواسطة الأزلام .

أى وحرم عليكم أن تطلبوا علم ما قسم لكم بالأزلام كما كانت تفعل العرب في الجاهلية .

وحكمة هذا التحريم أنه من الخرافات والأوهام التي لا يركن إليها إلا من كان ضعيف العقل يفعل ما يفعل عن غير بينة ولا بصيرة ويترك ما يترك كذلك ويجعل نفسه أعمى لكهنة والسدنة ويتفاءل ويتشائم بما لا قال فيه ولا شؤم ، ومن ثم أبطل ذلك دين العقل والبصيرة كما أبطل التطير والكهانة والعيافة والعرافة وسائر خرافات الجاهلية ، إلى أن فيها افتراء على الله إن أرادوا بقولهم « أسرنى ربى » الله عز وجل ، وجهلا وشركا إن أرادوا به الصنم ، إلى أن فيه طلبا لعلم الغيب الذي استأثر الله به .

وقد استن بعض جهال المسلمين بسنة مشركى الجاهلية أو بما يشبهها فترأهم يستقسمون بالشبح وغيرها ويسمون ذلك استخارة أو فالأ فيقتطعون طائفة من حب السبحة ويحرقونها حبة بعد أخرى ، يقولون : « افعل » على واحدة « لا تفعل » على الثانية ، ويكون الحكم الفصل للحبة الأخيرة ، وما هذا بالاستخارة التي ورد الإذن بها بل قد ورد ما يؤيد تحريمها .

ومنهم من يستقسم أو يأخذ القال من القرآن الكريم فيصبغون عملهم بصبغة الدين ، ويلبسون الباطل ثوب الحق ، ولم يرد في هذا نص يجوز العمل به ولكن الإلف والعادة جعلاه هذه البدع مستحسنة وتأولوا لها اسم القال الحسن ورووا في ذلك حديث أبى هريرة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان يعجبه القال الحسن » وليس هذا من القال الحسن ، بل القال ضد الطيرة التي أبطلتها الأحاديث . والعجيب من أمر بعض المسلمين أنهم تركوا الاهتداء بالقرآن وحرموه على أنفسهم واكتفوا من الإيمان به والتعظيم له بالاستقسام به كما كانت الجاهلية تستقسم بالأزلام ، أو الاستشفاء بمداد تكتب به آياته في كاغد أو جام ( فنجان ) وكل هذا من الضلالات والخرافات التي لم يرد شيء منها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن السلف الصالح .

وأعجب من ذلك جعل بعض الدجالين الاستقسام من قبيل الاستخارة وجعل بعضهم له من قبيل القرعة المشروعة ، وكل ذلك ضلال إذ لا بينة فيه ولا سلطان .

والاستخارة التي وردت بها السنة هي التوجه إلى الله والاتجاه إليه بالصلاة والدعاء بأن يزيل عن الإنسان الحيرة ويرشده إلى ما فيه الفائدة فيما تتعارض فيه الدلائل والبيّنات فلا يستبين له إن كان الخير في الإقدام أو في الترك ، فإذا شرح الله صدره لشيء أمضاه .

وقد روى أحمد والشيخان وأصحاب السنن من حديث جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا سورة من القرآن يقول : « إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به » قال ويسمى حاجته .

والقرعة تشبه هذا بل أمرها أظهر ، فإنها إنما تكون للترجيح بين المتساويين قطعاً كالقسمة بين اثنين إذ لا وجه للإلزام من تقسم بينهما بأن يأخذ زيد منهما هذه الحصّة وعمره الأخرى ، فتكون القرعة طريقة حسنة عادلة .

( ذلكم فسق ) أي كل محرم مما سلف فسق وخروج من طاعة الله وورغبة عن شره إلى معصيته .

( اليوم ينس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوم واخشون ) اليوم هو يوم عرفة من حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة وكان يوم الجمعة ، وهو اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية المبينة لما يقر من الأحكام التي أبطل بها الإسلام بقايا مهانة الجاهلية وخبائثها

وأوهامها ، والمبشرة بظهور المسلمين على المشركين ظهورا تاما لا مطمع لهم في زواله ، ولا حاجة معه إلى شيء من مداراتهم أو الخوف من عاقبة أمرهم .

روى البيهقي في كتاب شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله : ( اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ) يقول يئس أهل مكة أن ترجعوا إلى دينهم وهو عبادة الأوثان أبدا (فلا تخشوهم) في اتباع محمد (واخشوني) في عبادة الأوثان وتكذيب محمد .  
والخلاصة — إن الله أخبر المؤمنين بأن الكفار أنفسهم قد يئسوا من زوال دينهم ، وأنه ينبغي لهم — وقد بدلهم بضعفهم قوة وبخوفهم أمنا وبفقرهم غنى — ألا يخشوا غيره وقد عرفوا فضله وإعزازه لهم .

وإجمال المعنى — انقطع رجائهم من إبطال دينكم ورجوعكم عنه لما شاهدوا من فضل الله عليكم إذ وفي بوعده وأظهره على الدين كله .  
( اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً )  
في الآية بشارات ثلاث فسرها السلف بما سنذكره بعد :

روى عن ابن عباس أنه قال لما كان النبي صلى الله عليه وسلم واقفا بعرفات نزل عليه جبريل وهو رافع يده والمسلمون يدعون الله ( اليوم أكملت لكم دينكم ) أى حلالكم وحرامكم فلم ينزل بعده حلال ولا حرام ( وأتممت عليكم نعمتي ) أى متى فلم يحج معكم مشرك ( ورضيت ) أى اخترت ( لكم الإسلام ديناً ) .

وقد مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية واحدا وثمانين يوما ثم قبضه الله إليه ، وروى ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا أنه قال : أخبر الله نبيه والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا ، وقد أتمه فلا ينقص أبدا ، وقد رضيهم فلا يسخط أبدا .

وقال صاحب الكشاف : ( اليوم أكملت لكم دينكم ) كفيتمكم أمر عدوكم وجعلت اليد العليا لكم كما تقول الملوك : اليوم كل لنا الملك ، وكل لنا ما نريد .  
إذا كفوا من ينازعهم الملك ووصلوا إلى أغراضهم ومنافعهم .

( وأتمت عليكم نعمتى ) بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين ، وهدم منار الجاهلية وإبطال مناسكها وأن لم يحج معكم مشرك ولم يطف بالبيت عريان .  
 ( ورضيت لكم الإسلام ديناً ) يعنى اخترته لكم من بين الأديان وآذنتكم بأنه هو الدين المرضى وحده « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » . اه  
 ( فمن اضطر فى مخصة غير متجانف لإثم ) الاضطرار : حمل الإنسان على ما يضره وإلجأؤه إليه ، والمخصة : المجاعة تخلص لها البطون أى تضمر ، والمتجانف للإثم : المائل المنحرف إليه المختار له ، أى فمن وقع فى ضرورة تناول شىء من المحرمات بسبب مجاعة تخلص لها البطون ويخاف منها الموت أو مبادئته حال كونه غير مختار للإثم بأن يأكل منه ما يزيد على ما يمسك به رمقه ، فإن ذلك حرام كما روى عن ابن عباس ومجاهد وقتادة رضى الله عنهم :

وفى معنى الآية ماجاء فى سورة البقرة « فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » أى فمن اضطر غير طالب له ولا متعدٍّ ومتجاوز قدر الضرورة فلا إثم عليه . وإتما اشترط هذا لأن الإباحة للضرورة وهى تقدر بقدرها وذلك نافع المضطر أدياً وطبعاً لأنه يئمنه أن يتجرأ على ما تعود فيه مهانة له وضرر .

( فإن الله غفور رحيم ) أى فمن اضطر إلى أكل شىء مما ذكر فأكل فى مجاعة لا يجد فيها غيره وهو غير مائل إليه لذاته ولا جائر فيه متجاوز قدر الضرورة ، فإن الله غفور لمثله لا يؤاخذة عليه ، وهو رحيم به يرحمه ويحسن إليه .

ولما كان الأصل فى الأشياء الحل لأن الله سخر لنا مافى الأرض جميعاً لننتفع به ، والمحظور علينا هو ما يضرنا ، ولكن الناس يتصدون أحياناً لفعل ما يضرهم وترك ما ينفعهم ، كما كانت تفعل العرب إذ استباححت أكل الميتة والدم ونحوها من الخبائث ، وحرمت على نفسها بعض الطيبات من الأنعام بخرافات وأوهام باطلة كالبحيرة والسائبة ونحوها - كانت الحاجة ماسة إلى بيان ما يحله الله تعالى مما حرمه بعد بيان ما حرمه مما أحلوه فقال :

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ، قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ  
 الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ يُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ، فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ  
 عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤)  
 الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ  
 وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ  
 أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ  
 مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ  
 وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥).

### شرح المفردات

الطيبات ضد الخبيث ، والجوارح : واحدها جارحة، وهي الصائدة من الكلاب  
 والفهود والطيور من الجرح بمعنى الكسب قال تعالى : « وَ يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ »  
 أى كسبتم ، ومكلبين من التكليب وهو تعليم الكلاب وإضراؤها بالصيد ثم استعمل  
 في تعليم الجوارح مطلقا ، والمحصنات هنا: الحرأر، وقيل العفيفات عن الزنا ، والأجور  
 المهور، والمراد بالمحصنين الأعماء عن الزنا ، مسافحين مجاهرين بالزنا، متخذى أخدان :  
 مسرين به ، والخدن: الصديق يقع على الذكر والأنثى ، حبط عمله: بطل ثواب عمله.

### المعنى الجملى

روى ابن جرير وابن المنذر والطبرانى والبيهقى « أن النبى صلى الله عليه وسلم  
 لما أمر أبا رافع بقتل الكلاب فى المدينة جاء الناس فقالوا : يا رسول الله ما يحل لنا

من هذه الأمة التى أمرت بقتلها؟ فأنزل الله الآية فقرأها، وذكر مسألة صيد الكلاب وأكل ما أمسكن منه كأنه تفسير لها .

## الايضاح

(يسألونك ماذا أحل لهم) أى يسألك المؤمنون ماذا أحل الله لهم من الطعام؟ (قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكايبن تعلمونهن مما علمكم الله) الطيبات ما تستطيبها النفوس السليمة الفطرة، المعتدلة العيشة بمقتضى طبيعتها فتأكلها باشتهاء، وما أكله الإنسان كذلك يسيغه ويهضمه بسهولة ويتغذى به غذاء صالحا، وما يستخبثه ويعافه لا يسهل عليه هضمه ويضره غالبا، فما حرمه الله فى الآية السابقة خبيث بشهادة الله الموافقة للنظرة المعتدلة، وأصحاب الفطر السليمة يعافون أكل الميتة حتف أنفها وما مائلها من فرائس السباع والمترديات والنطائح والدم المسفوح، وكذلك الخنزير يعافه من يعرف ضرره وانهما كه فى أكل القاذورات .  
والخلاصة — أحل لكم أيها المكلفون ما يستطاب أكله ويشتهى دون ما يخبث أو يعاف، وأحل لكم صيد الجوارح بشرط أن يكون الجارح الذى صاده مما أدبه الناس وعلومه الصيد حتى يصح أن ينسب الصيد إليهم ويكون قتل الجارح له كتنذكية مرسله إياه .

أما الطيبات فهى ما عدا المنصوص على تحريمه كبهيمة الأنعام وصيد البر والبحر أى ما من شأنه أن يصاد منهما، فالبحر كل حيوانه يصاد، والبر يصاد منه ما يؤكل ما عدا سباع الوحش والطيور، لحديث ابن عباس «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير» وحديث ثعلبة الخشنى «كل ذى ناب من السباع فأكله حرام» رواها أحمد ومسلم وأصحاب السنن .

(فكلا مما أمسكن عليكم) أى فكلا من الصيد ما تمسكه الجوارح عليكم،

أى تصيده لأجلكم فتحبسه وتقفه عليكم بعدم أكلها منه ؛ فإن أكلت منه فلا يحل أكل ما فضل عنها عند الجمهور ، لأنه مثل فريسة السبع المحرمة فى الآفة السالفة .

( واذكروا اسم الله عليه ) أى سموا عليه عند إرساله كما روى ذلك عن ابن عباس ، لحديث عدى بن حاتم « إذا أرسلت كلبك وسميت فأخذ فقتل فكل » .  
والتسمية واجبة عند أبى حنيفة ، ومستحبة عند الشافعى .

( واتقوا الله إن الله سريع الحساب ) أى اتقوا الله فىما أمركم به وفىما نهاكم عنه ، ولا تقدموا على مخالفته فتأكلوا من صيد الجوارح غير المعلمة ، أو مما لم تمسك عليكم من صيدها وأمسكته على نفسها ، أو تطعموا ما لم يسم الله عليه من الصيد . والنبايح مما صاده أهل الأوثان فإن الله قد حرم ذلك عليكم فاجتنبوه واعلموا أن الله لا يضع شيئا من أعمالكم ، بل تحاسبون عليها وتجازون فى الدنيا والآخرة وهو يحاسب الناس كلهم يوم القيامة فى وقت واحد ، فما أجدر حسابه أن يكون سريعا .  
و بعد أن بين وجوب التذكية للذبايح لإبعاد المسلمين مما كان عليه المشركون من أكل الميتة ، وشدد فى التسمية على الطعام من صيد وذبيحة لإبعادهم عما كانوا عليه من الذبح لغير الله بالإهلال به لأصنامهم ليظهرهم من كل ما كانوا عليه من أدران الشرك .

بين حكم مؤاكلة أهل الكتاب ومناحتهم ، لأنهم لما كانوا فى الأصل أهل توحيد ثم سرت إليهم ترغبات الشرك من دخل فى دينهم من المشركين كان هذا مظنة التشديد فى مؤاكلتهم ومناحتهم ، كما شدد فى أكل ذبايح مشركى العرب ونكاح نسائهم ، فذكر أنا لانعاملهم معاملة المشركين فى ذلك بل تحل لنا مؤاكلتهم ونكاح نسائهم فقال :

( اليوم أحل لكم الطيبات ) أى اليوم أحلت لكم الطيبات على سبيل التفصيل بعد أن كانت حلالا بالإجمال وضار حكمها مستقرا ثابتا .

(وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) الطعام هنا الذبائح لأن غيرها حلال بأصله ، والذين أوتوا الكتاب : هم اليهود والنصارى أى وذبائح أهل الكتاب ممن أوتوا التوراة والإنجيل ودانوا بهما أو بأحدهما حلال لكم دون ذبائح أهل الشرك الذين لا كتاب لهم من عبدة الأصنام والأوثان .

وروى ابن جرير عن أبي الدرداء وابن زيد أنهما سئلا عما ذبحوه للكنائس فأفتيا بأكله ، قال ابن زيد أحل الله طعامهم ولم يستثن منه شيئا ، وقال أبو الدرداء - وقد سئل عن كبش ذبح لكيسة يقال لها جرجيس أهذوه لها أنا كل منه ؟ اللهم عفوا إنما هم أهل كتاب طعامهم حل لنا وطعامنا حل لهم ، وأمره بأكله .  
(وطعامكم حل لهم) أى وذبائحكم أيها المؤمنون حل لأهل الكتاب ، فلا جناح عليكم أن تطعموهم من طعامكم أو تبيعوهم منه .

وظائدة ذكر ذلك بيان أن إباحة الذبائح حاصلة من الجانبين ، وليس كذلك إباحة المناكحة ، فذكره للتمييز بين النوعين .

(والحصنات من المؤمنات والحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن) .

الحصنات هنا الحرائر أى وأحل لكم أيها المؤمنون نكاح الحرائر من المؤمنات ونكاح الحرائر من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وهم اليهود والنصارى إذا أعطيتم من نكحتن من محصناتكم ومحصناتهم مهرهن .

وتقييد الحل بإتيان المهور لتأكيد الوجوب لا لاشتراطه في الحل ، وتخصيص الحرائر بالذكر للحث على ما هو الأولى منهن لا لأن من عداهن لا يحل ، إذ نكاح الإماء المسلمات صحيح بالاتفاق وكذا نكاح الإماء الكتابيات عند أبي حنيفة .

(محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان) المحصنون : الأعفاء عن الزنا ، والمسافحون الذين يأتون الفاحشة مجاهرين بها ، والمتخذى الأخدان : الذين يأتونها سرا

بالاختصاص بخدن من الأخدان ؛ والخدن يطلق على صاحب والصاحبة أى هن حل لكم إذا آتيتموهن أجورهن فعلا والتزمت به حال كونكم أعفَاء عن الزنا جهرا وسرا، إذ المقصد من الزواج أن يكون الرجل محصنا والمرأة محصنة يعف كل منهما الآخر ويعمله في حصن يمنعه من الفاحشة على أى وجه كانت ، فلا يزنى الرجل جهرة ولا سرا باتخاذ صاحبة خاصة به ولا تكون المرأة كذلك .

( ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين ) أى ومن ينكر شرائع الإسلام التى من جعلتها ما بين هنا من الأحكام المتعلقة بالحل والحرمة ويمتنع عن قبولها فقد حبط عمله الصالح الذى عمله قبل ذلك وبطل ثوابه وخسر فى الآخرة ما أعدده الله للمؤمنين من الجزاء العظيم على الإيمان الصحيح وهو إيمان الإذعان والعمل .

روى ابن جرير عن قتادة أنه قال : ذكر لنا أن ناسا من المسلمين قالوا كيف تزوج نساءهم يعنى نساء أهل الكتاب وهم على غير ديننا ؟ فأنزل الله عز ذكره ومن يكفر بالإيمان الخ . فأحل الله تزويجهن على علم اه .

والمغزى من الآية تعظيم شأن ما أحله الله وما حرمه والتغليظ على من خالف ذلك .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ  
وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ  
وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ  
مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا  
فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ  
وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)

وَإِذْ كُرِمُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُدِّمْتُمْ سَمِعْنَا  
وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) .

### المعنى الجملى

اعلم أن بين العبد وربه عهدين عهد الربوبية والإحسان ، وعهد العبودية والطاعة ، وبعد أن وفى له سبحانه بالعهد الأول و بين له ما يحل وما يحرم من لذات الحياة فى الطعام والنكاح وطلب إليهم الوفاء بالعهد الثانى وهو عهد الطاعة ، وأعظم الطاعات بعد الإيمان الصلاة ، والصلاة لا يمكن إقامتها إلا بالطهارة ، لاجرم بدأ الله بذكر فرائض الوضوء .

وبعد أن بين لنا طائفة من الأحكام المتعلقة بالعبادات والعبادات ذكرنا بعده وميثاقه علينا وما التزمناه من السمع والطاعة له ورسوله بقبول دينه الحق لنقوم به مخلصين .

### الإيضاح

( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ) أى إذا أردتم القيام إلى الصلاة على حد قوله تعالى : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » أى إذا أردت قراءته ، وجمهور المسلمين على أن الطهارة لا تجب على من قام للصلاة إلا إذا كان محدثاً .

أى إذا قمتم إلى الصلاة محدثين فاغسلوا الخ . وهذا التقييد مستفاد من السنة العملية فى الصدر الأول، فقد روى أحمد ومسلم وأصحاب السنن من حديث بُرَيْدَةَ قَالَ : « كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَوَضَّأُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْفَتْحِ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى خَفِيهِ ، وَصَلَّى الصَّلَاةَ بِوَضُوءٍ وَاحِدٍ . فَقَالَ لَهُ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ فَعَلْتَ شَيْئًا لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُهُ فَقَالَ : (عَمِدَا فَعَلْتَهُ يَا عَمْرُ) » وزوى البخارى وأصحاب السنن عن عمرو بن عامر الأنصارى سمعت أنس بن مالك يقول : كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ

عند كل صلاة ، قال قلت : فأتتم كيف تصنعون ؟ قال كنا نصلى الصلوات بوضوء واحد ما لم نحدث ، وروى أحمد والشيخان من حديث أبي هريرة مرفوعاً « لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ » فهذه الأخبار تدل على أن المسلمين لم يكونوا في عهد النبي يتوضئون لكل صلاة وإنما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ لكل صلاة غالباً ، وصلى الصلوات يوم الفتح بوضوء واحد أمام الناس لبيان جواز ذلك . ومن ذلك يعلم أن الوضوء لكل صلاة عزيمة وهو الأفضل ، وإنما يجب على من أحدث . وآخر الآية يدل على ذلك فإنه ذكر الحداثين ووجوب التيمم على من لم يجد الماء بعدها فلم منه أن من وجده وجب عليه أن يتطهر به عقبهما ، ولو كانت الطهارة واجبة لكل صلاة لما كان لهذا معنى .

والخلاصة — أن الوضوء لا يجب إلا على المحدث وإنما يستحب تجديده لكل صلاة .

( فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ) الغسل ( بالفتح ) إسالة الماء على الشيء لإزالة ما عليه من وسخ ونحوه ، والوجوه واحدها وجه ، وحده من أعلى تسطيح الجهة إلى أسفل اللحيين طولاً ومن شحمة الأذن إلى شحمة الأذن عرضاً ، والأيدي واحدها يد وحدها في الوضوء من رءوس الأصابع إلى المرفق وهو أعلى الذراع وأسفل العضد .

روى مسلم من حديث أبي هريرة : أنه توضأ فغسل وجهه فأسبغ الوضوء ثم غسل يده اليمنى حتى أشرع في العضد ثم غسل يده اليسرى حتى أشرع في العضد ، ثم مسح رأسه ثم غسل رجله اليمنى حتى أشرع في الساق ، ثم غسل رجله اليسرى حتى أشرع في الساق ، ثم قال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ . ( وامسحوا برءوسكم ) الرأس معروف ويمسح ما عدا الوجه منه . وقد اختلف فقهاء الأمصار في أقل ما يحصل به فرض مسح الرأس ، فقال الشافعي يكفي أقل ما يصدق عليه اسم المسح ولو شعرة ، وقال مالك يجب مسح الكل أخذاً بالاحتياط ،

وأوجب أبو حنيفة مسح الربع لأن المسح إنما يكون باليد وهي تستوعب مقدار الربع في الغالب . ولما روى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ومسح على ناصيته» (وهي مقدار الربع) .

(وأرجلكم إلى الكعبين) الكعبان هما العظمان الناتئان عند مفصل الراق من الجانبين ، أى واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين ويؤيده عمل النبي صلى الله عليه وسلم وعمل الصحابة وقول أكثر الأئمة فقد روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً لم يغسل عقبه فقال : «ويل للأعقاب من النار» وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر قال : تخلف عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفرة فأدركنا وقد أرهقنا العصر فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا قال فنأدى بأعلى صوته «ويل للأعقاب من النار» مرتين أو ثلاثاً .

ويقوم المسح على الخفين عند لبسهما مقام غسل الأرجل ، وقد روى ذلك خلافاً لا يحصون من الصحابة ، قال الحسن : حدثني سبعون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «كان يمسح على الخفين» وقال الحافظ بن حجر : قد صرح جمع من الحفاظ بأن لمسح على الخفين متواتر وأقوى الأحاديث حجة فيه حديث جرير ، فقد روى أحمد والشيخان وأبو داود والترمذى أنه قال ثم توضحاً ومسح على خفيه فتبيل له تفعل هكذا؟ قال نعم . رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بال ثم توضحاً ومسح على خفيه .

وإخلاصة — أن غسل الرجلين المكشوفتين ومسح المستورتين هو الثابت بالسنة المتواترة المبينة للقرآن والموافق لحكمة هذه الطهارة .

(وإن كنتم جنباً فاطهروا) الجنب لفظ يستعمل للفرد والثنى والجمع والمذكر والمؤنث والمراد به المضاجعة والوقاع أى وإن كنتم أصابكم جنبابة قبل أن تقوموا إلى صلاتكم فقمتم إليها فتطهروا منها بغسل البدن كله قبل دخولكم في صلاتكم التى قمتم إليها .

وفي معنى الوقاع خروج المنى بالاحتلام فهو جنابة شرعا ، وفي الحديث « إنما الماء من الماء » رواه مسلم ، أى إنما يجب ماء الغسل من الماء الدافق الذى يخرج من الإنسان .  
 .هما كان سبب خروجه .

ولما بين سبحانه وجوب الطهارتين وكان المسلم لا بد له من طهارة الوضوء مرة أو أكثر من ذلك فى اليوم ولا بد له من الغسل فى كل أسبوع أو أكثر مرة غالبا بين الرخصة فى تركهما عند المشقة أو العجز ، لأن الدين يسر لا حرج فيه ولا عنت فقال :

( وإن كنتم مرضى ) أى وإن كنتم مرضى مرضا جليدا كالجدري والجرب وغيرها من القروح والجروح أو أى مرض يشق فيه استعمال الماء أو يضر .

( أو على سفر ) طال أو قصر مهما كان السبب فيه ، ومن شأن السفر أن يشق فيه الوضوء والغسل .

( أو جاء أحد منكم من الغائط ) الغائط المكان المنخفض من الأرض ، ويراد به شرعا قضاء الحاجة من بول وغائط أى أحدثتم الحدث الموجب للوضوء عند إرادة الصلاة ونحوها كالطواف ، ويسمى الحدث الأصغر .

( أو لامستم النساء ) المراد باللامسة المباشرة المشتركة بين الرجال والنساء ، والحدث الموجب للغسل يسمى الحدث الأكبر .

( فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ) أى إذا كنتم على حال من هذه الأحوال الثلاث المرض أو السفر أو فقد الماء عند الحاجة إليه لإحدى الطهارتين فاقضوا ترابا أو مكانا من وجه الأرض طاهرا لانجاسة عليه فاضربوا بأيديكم عليه وأمسحوها بوجوهكم وأيديكم إلى الرسغين بحيث يصبها أثر منه .  
 ( ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ) أى ما يريد الله ليجعل عليكم فيما شرعه لكم فى هذه الآية وفى غيرها حرجا ما ، أى أدنى ضيق وأقل مشقة لأنه تعالى غنى

عنكم رحيم بكم فلا يشرع لكم إلا ما فيه الخير والنفع لكم .  
 (ولسكن يريد ليظركم) من الأفتذار والذائل والمنكرات والمعقائد الفاسدة؛  
 فتكونوا أنظف الناس أبدانا وأزكاهم نفوسا وأصحهم أجسادا وأرقاهم أرواحا .  
 (وليم نعمته عليكم) فيجمع لكم بين طهارة الأبدان وطهارة الأرواح ،  
 والإنسان إنما هو روح وجسد والصلاة تطهر الروح وتركي النفس ، فهي تنهى عن  
 الفحشاء والمنكر وتعود المصلي مراقبة ربه في السر والعلن وخشيته حين الإساءة  
 والرجاء فيه لدى الإحسان ، والطهارة التي جعلها الله شرطا للدخول في الصلاة  
 ومقدمة لها تطهر البدن وتنشطه فيسهل بذلك العمل من عبادة وغيرها ، فما أجل  
 نعم الله على عباده ، وما أجدر من هدى بهداه بدوام الشكر عليه ، ومن ثم ختم الآية  
 الكريمة بقوله :

(لعلكم تشكرون) أى وليعدكم بذلك لدوام شكره على تلك النعم الظاهرة والباطنة.

## الحكمة في شرع الوضوء والغسل

للوضوء والغسل فوائد أهمها :

(١) أن غسل البدن كله وغسل الأطراف يفيد صاحبه نشاطا وهمة ويزيل  
 ما يعرض للجسد من الفتور والاسترخاء بسبب الحدث أو بغيره من الأعمال التي تؤثر  
 تأثيره ، وبذا يقيم الصلاة على وجهها ويعطيها حقها من الخشوع ومراقبة الله تعالى .  
 إذ المشاهد أنه إذا بلغ الإنسان من هذه اللذة الجسمية غايتها بالوقوع أو الإنزال  
 حصل تهيج عصبى كبير يعقبه فتور شديد على حسب سنة رد الفعل ، ولا يعيد نشاطه  
 إلا غسل البدن كله .

(٢) أن النظافة ركن الصحة البدنية فإن الوسخ والأفتذار مجلبة الأمراض  
 والأدواء الكثيرة ، ومن ثم ترى الأطباء يشددون في أيام الأوبئة والأمراض المعدية  
 في المبالغة في النظافة ، وجدير بالمسلمين أن يكونوا أصح الناس أجسادا وأقلهم أمراضا

لأن دينهم مبنى على المبالغة في نظافة الأبدان والثياب والأمكنة فإذا هم فعلوا ما أوجبه الدين تنتفى الأسباب التي تولد جراثيم الأمراض عند الناس . . .

(٣) تكريم المسلم نفسه لدى نفسه وأهله وقومه الذين يعيش معهم ، إذ من كان نظيف البدن والثياب كان جديرا بحضور كل مجتمع ولقاء أشرف الناس وفضلائهم ومن كان وسخا قدرا فإنه يكون محتقرا عند كرام الناس ولا يعدونه أهلا لأن يحضر مجالسهم ويشعر في نفسه بالضعفة والهوان .

ولأجل هذا ورد الأمر بالغسل يوم الجمعة والطيب ولبس الثياب النظيفة لأنه يوم يجتمع فيه الناس في المساجد لعبادة الله تعالى ، روى مالك والشافعى وأحمد والبخارى ومسلم من طرق عدة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « غسل الجمعة واجب على كل محتلم » أى بالغ مكلف .

وبعد أن بين سبحانه هذه الأحكام وذكركم رفع الحرج الذى تم به الإتيان ذكرنا بنعمه التى أنعم بها علينا فقال :

(واذ كروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا) أى تذكروا أيها المؤمنون إذ كنتم كفارا متباعدين فأصبحتم بهداية الدين إخوانا متحابين ، وتذكروا العهد الذى عاهدكم به حين بايعتم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى المنشط والمكروه ( المحبوب - والمكروه ) والعسر واليسر حين قلتم له سمعنا ما أمرتنا به ونهيتمنا عنه ، وأطعناك فيه فلا نعصيك فى معروف ، وكل ما جئتنا به فهو معروف .

وكل نبي بعث فى قوم أخذ عليهم ميثاق الله بالسمع والطاعة وقبول الدعوة . والدخول فى الدين يعد قبولاً لهذا العهد ، فعلىنا أن نمدّ بهذا التذكير خطابا لنا كما عده السلف من الصحابة خطابا لهم .

(واتقوا الله) فلا تنقضوا عهده وتحالفوا ما أمركم به وما نهاكم عنه سواء أكان فى هذه الآيات أم فى غيرها .

( إن الله عليم بذات الصدور ) فلا يخفى عليه ما أضمره كل واحد ممن أخذ عليه الميثاق من نية الوفاء به أو عدم الوفاء ، وما تنطوى عليه السرائر من الإخلاص أو الزياد .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ لَّا يَنْسِفُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) .

### شرح المفردات

القوام بالشئ : هو القائم به حق القيام ، شهداء بالقسط أى شهداء بالعدل بلا محاباة ، ولا يجرم منكم أى ولا يحملنكم ، والشنان : العداوة والبغضاء ، الخير : العالم بالشئ على وجه الدقة والضبط ، والجحيم : النار العظيمة ، وهى هنا دار العذاب وأصحابها هم ملازموها ، بسط إليه يده : إذا بطش به ، وبسط إليه لسانه : إذا شتمه ، والتقوى هى اتقاء عقاب الله وسخطه بترك معاصيه .

### المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه عباده بالوفاء بالعقود عامة ثم امتن عليهم بإباحة كثير من الطيبات لهم وتحريم ما يضرهم من الطعام إلا فى حال الضرورة ، ثم ذكر حل طعام

أهل الكتاب ونسائهم إذا كن محصنات ، ثم أمرهم بالطهارة مع رفع الحرج عنهم - ذكر هنا ما ينبغي أن يكون من معاملتهم سواء أ كانوا أعداء أم أولياء ، ثم ذكر وعده لعباده الذين يعملون الصالحات ووعيده لمن كفر وكذب بالآيات ، وختمها بذكر المنة الشاملة والنعمة الكاملة إذ أنقذهم من أعدائهم وأظهرهم عليهم ، وكانوا على وشك الإيقاع بهم ، ولكن رحمهم وكبت أعداءهم وردم صاغرين ليكون الشكر أتم والوفاء أزم .

## الإيضاح

( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ ) أى ليكن من دأبكم وعادتكم القيام بالحق فى أنفسكم بالإخلاص لله فى كل ما تعملونه من أمر دينكم أو أمر دنياكم ، بأن تريدوا بعملكم الخير والتزام الحق بدون اعتداء على أحد ، وفى غيركم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ابتغاء مرضاة الله .

( شهداء بالقسط ) الشهادة هنا عبارة عن إظهار الحق للحاكم ليحكم به ، أى إظهاره هو له بالحكم به أو الإقرار به لصاحبه ، وفى كل حال تكون بالعدل بلا محاباة لمشهود له ولا لمشهود عليه لأجل قرابة أو مال أو جاه ولا تركه لفقر أو مسكنة فالعدل هو ميزان الحقوق ، إذ متى وقع الجور فى أمة لأى سبب زالت الثقة من الناس وانتشرت الفاسد وتقطعت روابط المجتمع ، فلا يلبث أن يسلب الله عليهم بعض عباده الذين هم أقرب منهم إلى العدل فيذيقهم الوبال والتكال ، وتلك سنة الله فى حاضر الأمم وغايرها ، ولكن الناس لا يعتبرون .

( ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ) أى ولا تحملنكم العداوة والبغضاء لقوم على عدم العدل فى أمرهم بالشهادة لهم بحقهم إذا كانوا أصحاب حق أو الحكم لهم بذلك ، فالؤمن يؤثر العدل على الجور والمحابة ويجمعه فوق الأهواء وحفظ النفس وفوق الحبة والعداوة مهما كان سببها .

( اعدلوا هو أقرب للتقوى ) هذه الجملة تؤكد للجملة السالفة العناية بأمر العدل وأنه فريضة لا هوادة فيها لأنه أقرب لتقوى الله والبعد عن سخطه ، وتركه من أكبر المعاصى لما ينشأ عنه من المفاسد التى تقوض نظم المجتمعات وتقطع الروابط بين الأفراد وتجعل بأسهم بينهم شديدا .

( واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ) أى واتقوا سخطه وعقابه لأنه لا يخفى عليه شئ من أعمالكم ظاهرها وباطنها ، واحذروا أن يجازيكم بالعدل على ترككم للعدل وقد مضت سنته فى خلقه بأن يجعل جزاء ترك العدل فى الدنيا الذلة والمهانة للأمم والأفراد وفى الآخرة الخزى يوم الحساب .

( وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ) أى الأعمال التى يصلح بها أمر العباد فى أنفسهم وفى روابطهم الاجتماعية ، ومن أهمها العدل فيما بينهم وتقوى الله فى جميع أحوالهم .

ثم بين سبحانه ما وعدهم به بعد أن ذكره أولا مجملا لتتوجه النفس للسؤال عنه حتى إذا جاء تأكد فى النفس وتقرر هذا الوعد فقال :

( لهم مغفرة وأجر عظيم ) المغفرة الستر ، والإيمان والعمل الصالح يستران ويمحوان من النفس ما يكون فيها من سوء أثر الأعمال السالفة فيغلب عليها حب الحق والخير وتكون أهلا للوصول إلى عالم القدس والظهور ، والأجر العظيم هو الجزاء المضاعف على الإيمان والعمل الصالح فضلا من الله ورحمة من لدنه .

( والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ) الكفر هنا هو الكفر بالله ورسله ، لا فارق فى ذلك بين كفر بالجميع وكفر بالبعض .

وآيات الله قسما آياته المنزلة على رسله وآياته التى أقامها فى الأنفس والآفاق للدلالة على وحدانيته وكاله وقدرته وإرادته ، وعلى صدق رسله فيما يبلغون عنه ، والجحيم النار العظيمة كما قال تعالى حكاية عن قوم إبراهيم « قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا

فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ » أى أن هؤلاء الكفار المكذبين سيصلون العذاب فى نار عظيمة أَعَدَّهَا اللهُ لِمَن كَفَرَ وَكَذَّبَ بِآيَاتِهِ لِأَن نَفْسَهُمْ قَدْ فَسَدَتْ ، وَسُوءَ أَعْمَالِهِمْ قَدْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَأَصْبَحُوا صَمًا عَمِيًّا لَا يَبْصُرُونَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا كَرُمَا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكُفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ » .

روى من طرق عدة أن الآية نزلت فى رجل من قبيلة محارب هم بقتل النبي صلى الله عليه وسلم أرسله قومه لذلك وكان بيده سيف وليس مع النبي صلى الله عليه وسلم سلاح وكان منفردا . روى الحاكم من حديث جابر قال : قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : من يمنعك ؟ قال الله ، فوقع السيف من يده فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : من يمنعك ؟ قال كن خير آخذ ، قال تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله قال : أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، نغلى سبيله ، فجاء إلى قومه وقال : جئتكم من عند خير الناس .

وفى رواية أخرى « أن السيف الذى كان بيد الأعرابي كان سيف النبي صلى الله عليه وسلم علقه فى شجرة وقت الراحة فأخذه الرجل وجعل يهزه ويهم بقتل النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم سقط من يده فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال من يمنعك منى ؟ قال لا أحد ، ثم صاح رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه فأخبرهم وأبى أن يعاقبه » .

وعلى هذا فالمراد تكريمهم بنعمة الله عليهم بدفع الشر والمكروه عن نبيهم ، فإنه لو حصل ذلك لكان من المحن الكبرى التى تصيب المسلمين .

وقيل إن المراد تكريمهم بما أنعم الله عليهم من قوة الإسلام وعظمة شوكة المسلمين فبعد أن كانوا أذلاء مغلوبين على أمرهم بدل الله الحال غير الحال وأصبحوا أعزة بعد الذلّة وغالبين بعد أن كانوا مهزومين فهو سبحانه يذكر المسلمين بوقائع الاعتداء كلها

سواء في ذلك جاذبة الحاربي أو ما لها لأن حفظه لأوثك السلف هو حفظه لذلك الدين القويم ، فالنبي صلى الله عليه وسلم قد باع الرسالة وأدى الأمانة ، وأصحابه هم الذين تناقوها عنه وأدوها لمن بعدهم قولاً وعملاً .

ومن فوائد هذا التذكير لمتأخر ترغيبه في التأسى بالسلف في القيام بما جاء به الدين من الحق والعدل والبر .

ومعنى قوله : إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم ، أى شارفوا أن يمدوا أيديهم إليكم بصنوف البلاء من قتل ونهب فكف الله تعالى بلطفه ورحمته أيديهم عنكم فلم يستطيعوا تنفيذ ما هموا به .

( واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ) أى واتقوا الله الذى أراكم قدرته على أعدائكم وقت ضعفكم وقوتهم ، وتوكلوا عليه وحده فقد أراكم عنايته بمن يكون أموره إليه بعد مراعاة سننه والسير عابها في اتقاء كل ما يخشى ضره وتسوء عاقبته ، لا على أوليائكم وحلفائكم ، لأن الأولياء قد تنقطع بهم الأسباب ويحيبون داعى البأس إذا اشتد البأس ، والحلفاء قد يغدرون كما غدروا بنو النضير وغيرهم ، ولكن المؤمن المتوكل على الله إذا هم أن يبأس تذكر أن الله وليه وهو الذى بيده ملكوت كل شيء وهو الذى يحير ولا يجار عايبه فتتجدد قوته ويفر منه اليأس فينصره الله ويخذل أعداءه كما حدث لأوثك السكلة المتوكلين مع سيد المرسلين أيام ضعفهم وقتلهم وقرهم وتألب الناس كلهم عليهم .

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا فِيهِمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ

فَقَدْ ضَلَّ سِوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَمَا تَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ  
 قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا  
 تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ  
 يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا  
 حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ  
 وَسَوْفَ يُنذِرُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) .

### شرح المفردات

تقريب القوم : من يتقرب عن أحوالهم ويبحث عن شؤونهم ، وتقرب عليهم تقابة  
 صار تقريبا عليهم ، والتعزير : النصرمة مع التعظيم ، وأقرضتم الله أى بذلتهم المال فوق  
 ما أوجبه عليكم ، والقرض الحسن : ما كان عن طيب نفس ، سواء السبيل : وسطه ،  
 لعنهم : طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا ، وقاسية : يابسة غليظة تنبو من قبول الحق ،  
 والتحريف : إمالة الشيء عن موضعه إلى أى جانب من الجوانب ، والخائنة : الخيانة ،  
 الإغراء : أصله التحريش ، يقال أغرى الشيء بالشيء والمراد هنا تفرق الأهواء الموجب  
 للعداوة والبغضاء .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكرنا الله بميثاقه الذى واثقنا به على السمع والطاعة لخاتم النبيين صلى  
 الله عليه وسلم - بين لنا فى هذه الآيات أخذ الميثاق على اليهود والنصارى وما كان  
 من تقضهم له ومن عقابه لهم على ذلك فى الدنيا بضروب الذلّة والمسكنة وفى الآخرة  
 الجزى والعذاب لتعتبر بحالهم وتبتعد أن نكون على مثالهم وليشرح لنا العلة فى كفرهم

بالنبي صلى الله عليه وسلم وسبب تصديهم لا يذاته وعداوة أمته وليقيم الحجة عليهم بما تراه من ذكر المحاجة وبيان أنواع كفرهم وضلالهم .

## الإيضاح

( ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل ) أى ولقد أخذ الله العهود والمواثيق على بني إسرائيل ليعلمن بما فى التوراة وفيها شريعتهم التى اختارها لهم ، ولا يزال هذا الميثاق فى آخر الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام .

( وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا ) نقيباً بني إسرائيل زعماء أسباطهم الاثني عشر وبعثنا أى أرسلنا لمقاتلة الجبارين الذين سيأتى ذكرهم بعد .

روى أنه لما نجا بنو إسرائيل بعد هلاك فرعون أمرهم الله بالسير إلى بيت المقدس وكان يسكنها الكنعانيون الجبارة وقال لهم إني جعلتها لكم وطناً ودار هجرة فأخرجوا إليها وجاهدوا من فيها وإني ناصركم ، وأمر نبيه موسى عليه السلام أن يأخذ من كل سبط نقيبا يكون كفيلا بالوفاء بتنفيذ ما أمروا به فاختار النقباء وأخذ الميثاق على بني إسرائيل وتكفل له به النقباء وسار بهم ، فلما دنا من الأرض المقدسة بعث النقباء يتحسسون الأخبار فرأوا أجساما قوية وشوكة وقوة فهابوهم ورجعوا وحدثوا قومهم بما رأوا وقد كاتب موسى نهبهم عن ذلك فنكثوا الميثاق إلا تقيبين وهما اللذان قال فيهما ( قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ ) الآية ، وسيأتى الكلام فى ذلك بعد .

( وقال الله إني معكم ) أى وقال الله هذا لموسى وهو بلغه عنه، ومعنى كونه معهم أنه ناصرهم ومعينهم ما داموا محافظين على الميثاق ، وهو راء لأفعالهم ، سميع لأقوالهم عليم بضمائرهم ، وقادر على مجازاتهم .

( انن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزتموه وأقرضتم الله قرضا حسنا لا كفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار ) أى انن

أديتم الصلاة على وجهها ، وأعطيتم ما فرض عليكم من الصدقات التي تتركها  
بها نفوسكم ، وآمنتم برسلي الذين أرسلهم إليكم بعد موسى كداود وسليمان وزكريا  
ويحيى وعيسى ومحمد ونصرتهموهم معظمين لهم ، وبذلتهم من المال زيادة على ما أوجبه  
الله عليكم بالزكاة فسكنتم بذلك بمثابة من أقرض ماله لغنى ملء وفي لا يضيع عليه ،  
بل يجده أمامه عند شدة الحاجة إليه - لئن فعلتم كل هذا لأزبان بتلك الحسنات  
تأثير سيئاتكم التي سلفت منكم من نفوسكم فلا يبقى فيها رجس ولا خبث يقتضي  
العقاب ، فإن الحسنات يذهبن السيئات كما يغسل الماء الأدران والأوساخ ، ولأدخلنكم  
تلك الجنات التي لا يدخلها إلا من كان طاهرا من الشرك وما يتبعه من المعاصي  
والآثام التي تفسد الفطرة .

( فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ) أي فمن جحد منكم شيئا  
بما أمرته به فتركه أو عمل شيئا مما نهيته عنه بعد أخذ الميثاق عليه بالوفاء لي بطاعتي  
واجتنابه معصيتي فقد أخطأ الطريق الواضح وضل الصراط المستقيم الذي يوصل  
سالكه إلى إصلاح قلبه وتركية نفسه ويجعله أهلا لجوار ربه في تلك الجنات .

( فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ) أي فبسبب نقضهم للميثاق  
الذي أخذ عليهم - ومن ذلك الإيمان بمن يرسلون من الرسل ونصرهم وتبجيلهم  
وتعظيمهم - استحقوا مقتنا وغضبنا والبعد من أطفاننا فإن نقض الميثاق أفسد  
فطرتهم ودنس نفوسهم وقسى قلوبهم حتى قتلوا الأنبياء بغير حق وافتروا على مريم  
وأهانوا ولدها الذي أرسل إليهم وإصلاح ما فسد من عقائدهم وأخلاقهم ، وحاولوا  
قتله وافتحروا بذلك - فبكل هذا بعدوا عن رحمة الله إذ جرت سنته أن الأعمال  
السيئة تؤثر في النفوس آثارا سيئة فتجعل القلوب قاسية لا تؤثر فيها الحجة والموعظة ،  
ومن ثم تستحق مقت الله وغضبه والبعد من فضله ورحمته ، وما مثل هذا إلا مثل  
من يهمل العناية بنفسه ولا يراعى القوانين الصحية فهو لا شك سيصاب بالأمراض  
والأسقام ولا يلومن في هذه الحال إلا نفسه إذ كان هو السبب في ذلك بإهماله .

(يحرفون الكلم عن مواضعه) تحريف الكلم عن مواضعه يكون : إما بتحريف الألفاظ بالتقديم والتأخير والزيادة والنقصان ، وإما بتحريف المعاني بحمل الألفاظ على غير ما وضعت له ، وكل منهما قد وقع في التوراة وغيرها من كتبهم ، فإن التوراة التي كتبها موسى وأخذ العهد والميثاق على بنى إسرائيل بحفظها كما نص على ذلك في الفصل الحادى والثلاثين من سفر تثنية الاشتراع ، قد فقدت باتفاق مؤرخى اليهود والنصارى عند سبى البابليين لليهود ولم يكن عندهم إلا هذه النسخة ولم يكونوا يستظرونها كما كان المسلمون يستظرون القرآن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم . وهناك أسفار خمسة ينسبونها إلى موسى - فيها خبر كتابته التوراة وأخذه للعهد عليهم بحفظها ، ولا شك أن هذا ليس منها قطعا ، وفيها خبر موته وأنه لم يقم بعده أحد مثله إلى ذلك الوقت أى الوقت الذى كتب فيه سفر تثنية الاشتراع ، وفى هذا أكبر دليل على أن الكاتب كان بعد موسى بدرجة من الزمن طويل كما أن فيها كثيرا من الكلمات البابلية الدالة على أنها كتبت بعد السبى .

لكل هذا حقق كثير من مؤرخى الفرنجة أن هذه التوراة التى بين أيديهم كتبت بعد موسى ببضعة قرون كتبها عزرا الكاهن بعد أن أذن لبنى إسرائيل بالعودة إلى بلادهم .

(ونسوا حظا مما ذكروا به) روى عن ابن عباس أنه قال : نسوا الكتاب ؛ وعن مجاهد أنه قال : نسوا كتاب الله إذ أنزل عليهم ، ومرادها أنهم نسوا طائفة من أصل الكتاب ، وقال بعضهم : نسوا الكتاب بترك العمل به .

وفى الحق أنهم أضاعوا كتبهم وفقدوه عند ما أحرق البابليون هيكلهم وخرّبوا عاصمتهم وسبوا من بقى منهم حيا ، فلما عادت إليهم الحرية جمعوا ما كانوا قد حفظوه من التوراة ووعوه وعملوا به .

وهذا الخبر من أعظم الأدلة على أن القرآن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم أثبتتها

التاريخ بعد بعثة النبى بعدة قرون من موت موسى .

( ولا تزال تطلع على خائنة منهم ) الخائنة بمعنى الخيانة كالثائلة بمعنى القليلة والخاطئة بمعنى الخطيئة .

أى إنك أيها النبي لا تزال تطلع من هؤلاء اليهود على خيانة إثر خيانة فلا تظن أنك أنت كيدهم بتأمينك إياهم على أنفسهم فهم قوم لا وفاء لهم ولا أمان ، فن نقض عهد الله وميثاقه ، كيف يرجى منه وفاء ؟ وكيف يطمع منه في أمانة ؟ ( إلا قليلا منهم ) كعبد الله بن سلام وإخوانه ممن أسلموا وصدقوا الله ورسوله فلا تظن بهم سوءا ولا تخف منهم خيانة ولا خداعا .

( فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ) أى فاعف عما فرط من هؤلاء القليل واصفح عن أساءتهم وعاملهم بالإحسان الذى يحبه الله تعالى فأت أحق الناس باتباع ما يحبه الله ويرضاه ، وهذا رأى أبى مسلم ، وقال غيره : فاعف عن هؤلاء اليهود الذين هموا أن يبسطوا أيديهم إليك وإلى أصحابك بالقتل واصفح لهم عن جرمهم فإننى أحب من أحسن العفو والصفح إلى من أساء إليه إشارا للإحسان والفضل على ما يقتضيه العدل .

وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم رغب عند ما دخل المدينة فى مصالحة اليهود وموادعتهم فعد معهم العهد على ألا يحاربوه ولا يظاهروا من يحاربه ولا يمالئوا عليه عدوا له ، وأن يكونوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وحريةهم ، وكان إذاك منهم ثلاث طوائف حول المدينة وهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة فنقضوا العهد وهووا بقتل النبي صلى الله عليه وسلم فحل له قتالهم ولكنه رجع السلم على الحرب واكتفى بطردهم من جواره وبعث إليهم « أن اخرجوا من المدينة ولا تسأكنونى وقد أجلتكم عشرا فمن وجدته بها بعد ذلك ضربت عنقه » فأقاموا يتجهزون أياما ثم شبط عزيمتهم عبد الله بن أبى وأرسل إليهم ألا تخافوا إن معى ألفين يدخلون معكم حصنكم فيموتون دونكم وتنصركم قريظة وحلفائكم من غطفان وكان رئيسهم

المطاع حيي بن أخطب شديد العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي زين لهم قتله والغدر به فركن إلى قول ابن أبي وبعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم إنا لن نخرج من المدينة فافعل ما بدا لك .

فعل النبي صلى الله عليه وسلم أنهم يريدون الحرب فخرج هو والمسلمون للقائهم يحمل لواءه على بن أبي طالب كرم الله وجهه فلما وصلوا إليهم أقاموا على حصونهم يرمونهم بالنبل والحجارة ، ولما اشتد عليهم الحصار ورأوا الأَسبيل لهم إلا المقاومة رضوا بالخروج سالمين وعلموا أن وعد ابن أبي كان هو الغدر والخيانة بعينها وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قادرا حينئذ على استئصالهم والقضاء عليهم ولكنه اختار العفو والإحسان واكتفى بإبعادهم عن المدينة على أن يخرجوا منها وليس معهم إلا أولادهم وما حملت إلا السلاح ، ورحلوا إلى خيبر .

وهذه الآية نزلت بعد هذا كله لأنها من آخر ما نزل ولم يعاقب اليهود بعدها على خيانتهم ولا غدرهم ولكنه أوصى بإجلالهم عن جزيرة العرب .

( ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به ) أى وكذلك أخذنا من النصارى الثبات على طاعتى وأداء فرائضى واتباع رسلى والتصديق بهم ، فسلكوا فى ميثاقى الذى أخذته عليهم طريق اليهود الضالين ، فبدلوا دينهم ونقضوا الميثاق الذى أخذته عليهم بالوفاء بعهدى وضيعوا أمرى .

( فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ) فكان نسيان خطر عظيم من كتبهم سببا لتفرقهم فى الدين واتباع أهوائهم ، وتبع هذا أن وقعت بينهم العداوة والبغضاء بمقتضى سننه تعالى فى هذه الحياة ومن أجل هذا نسبه سبحانه إلى نفسه مع أنه من أعمالهم الاختيارية لأنه كان نتيجة حتمية لتلك السنن التى وضعت فى الخليقة .

( وسوف ينبهم الله بما كانوا يصنعون ) أى وسينتبههم الله عند الحساب فى الآخرة بما كانوا صنعوا فى الدنيا من نقض الميثاق ونكث للعهد وتبديل للكتاب

وتحريف للأوامر والنواهي ويجازيهم على ذلك على حسن استحقاقهم فيعلمون أنه حكم عدل لا يظلم مثقال ذرة .

بين الله في هذه الآية أن النصراري نسوا حظا مما ذكروا به كاليهود ، وسر هذا أن المسيح عليه السلام لم يكتب ما ذكرهم به من المواعظ وتوحيد الله وتنزيهه وطرق الإرشاد إلى عبادته وكان الذين اتبعوه من العامة وأمثلهم حواريه وهم من الصيادين ، وقد اشتهد اليهود في مطاردتهم في كل مكان ، ومن ثم لم تكن لهم جماعات ذات نفوذ وقوة وعلم تدون ما حفظوه من الإنجيل .

إلى أن كثيرا من الناس كانوا يبشرون تعاليم باطلة عن المسيح ومنهم من كتب مثل هذا حتى إن الكتب التي سموها الأناجيل كانت كثيرة جدا ، ولم تظهر الأناجيل الأربعة التي عليها المعول عندهم الآن إلا بعد ثلاثة قرون من تاريخ المسيح عند ما صار للنصراري دولة بدخول الملك قسطنطين في النصرانية وإدخاله إياها في طور جديد من الوثنية وهي تاريخ ناقص للمسيح على ما بها من تعارض وتناقض مع كونها مجهولة الأصل والتاريخ وقد أقاموا بناء دينهم وكتبهم التي يسمونها ( العهد الجديد ) على أساس كتب اليهود التي يسمونها كتب ( العهد العتيق ) وقد علمت شأنها فيما سلف .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ؛ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) .

## المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أنه أخذ الميثاق على اليهود والنصارى كما أخذه على هذه الأمة وأنهم تقضوا العهد والميثاق وتركوا ما أمروا به ، وأنهم أضاعوا حظا عظيما مما أوحاه إليهم ولم يقيموا ما حفظوا منه - دعاهم عقب ذلك إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالكتاب الذى جاء به .

## الإيضاح

( يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ) قال ابن عباس أخفوا صفة محمد صلى الله عليه وسلم وأخفوا أمر الرجم ، وعفا عن كثير مما أخفوه فلم يفضحهم ببيانه .

أى إنا قد أرسلنا إليكم محمدا رسول الله وخاتم النبيين يبين لكم كثيرا من الأحكام التى كنتم تخفونها وقد أنزلها الله عليكم كحكم رجم الزانى وهو مما حفظتموه من أحكام التوراة كما هو ثابت فى سفر التثنية ، لكنكم لم تلتزموا العمل به وأنكره عالمكم ابن صوريا أمام النبي صلى الله عليه وسلم فأقسم عليه وناشده الله فاعترف به ، وكذلك أخفى اليهود والنصارى صفات النبي صلى الله عليه وسلم والبشارات به وحرّفوها بالحمل على معان أخرى إلى ما أضاعوه من كتبهم ونسوه كنسيان اليهود ما جاء فى التوراة من أخبار الحساب والجزاء فى الآخرة وأظهره الرسول لهم وكانت الحجة عليهم فيه أقوى إذ هم يعلمون أنه نبي أمى لم يطلع على شيء من كتبهم ومن ثم آمن به من آمن من علمائهم المنصفين واعترفوا بعد إيمانهم بما بقى عندهم من البشارات وصفات النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان هذا البيان من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم ومعجزات القرآن التى لا ينبغى أن يمتري أحد فيها ومع هذا فقد كان يعفو عن كثير مما كانوا يخفونه ولا يظهر الكثير مما يكتمونه ، وإنا لم نظهره لأنه

لا حاجة إلى إظهاره في الدين ، والفائدة في ذكر بعضه إعلامهم بأن الرسول عالم بكل ما يخفونه فيكون ذلك داعياً لترك الإخفاء حتى لا يفتضحوا .

ومن شأن علماء السوء في كل أمة أن يكتتموا من العلم ما يكون حجة عليهم وكشفاً عن سوء حالهم أو يحرفوه بحمله على غير ظاهر معناه .

( قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ) النور هو النبي صلى الله عليه وسلم ، وسمى بذلك لأنه للبصيرة كالنور للبصر ، فكما أنه لولا النور ما أدرك البصر شيئاً من المبصرات كذلك لولا ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن والإسلام لما أدرك ذو البصيرة من أهل الكتاب ولا من غيرهم حقيقة الدين الحق ولا ما طرأ على التوراة والإنجيل من ضياع بعضهما أو نسيانه ، وعبث الرؤساء بالبعث الآخر بإخفاء شيء منه أو تحريفه واطلوا في ظلمات الجهل والسكر لا يبصرون .

والكتاب المبين هو القرآن الكريم وهو بين في نفسه مبين لما يحتاج إليه الناس لهدياتهم .

( يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ) من اتبع رضوان الله أي من كان همه من الدين ابتغاء رضوان الله لا تقرير ما ألقه ونشأ عليه وأخذ من أسلافه مع ترك النظر والاستدلال ، والسلام بمعنى السلامة أي طرق السلامة من كل مخافة ، وقوله من الظلمات إلى النور أي من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وقوله بإذنه أي بإرادته أو بتوفيقه بالجرى على سننه تعالى في تأثير الأعمال الصالحة والعقائد الصحيحة في النفوس وإصلاحها إياها ، وقوله إلى صراط مستقيم أي إلى الدين الحق لأنه واحد ومتفق من جميع جهاته ؛ أما الباطل فتعدد الطرق وكلها معوجة ملتوية ، وقد ذكر سبحانه للكتاب ثلاث فوائد :

(١) أن المتبع لما يرضى الله بالإيمان بهذا الكتاب يهديه إلى الطرق التي يسلم بها في الدنيا والآخرة من كل ما يبعده عن الشقاء والهلاك فيقوم في الدنيا بحقوق الله

والحقوق الواجبة عليه لنفسه (روحية كانت أو جسدية) وللناس ويكون في الآخرة  
منعاً نعيماً روحياً وجسدياً .  
وخلاصة ذلك :

(١) إنه يتبع ديناً يحد فيه ما يوصله إلى السلامة من الشقاء في الدنيا والآخرة  
لأنه دين الإخلاص والعدل والمساواة .

(٢) إنه يخرج معتنقيه من ظلمات الوثنية والأوهام والخرافات التي أفسد بها  
الرؤساء جميع الأديان إلى نور التوحيد الخالص الذي يجعل صاحبه جراً كريماً بين  
يدي الخلق خاضعاً للخالق وحده .

(٣) إنه يهتدى إلى الطريق الموصل إلى المقصد والغاية من الدين بأقرب الوسائل .

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ  
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ  
جَمِيعًا ، وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى  
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ  
قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ،  
وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ  
الْمَصِيرُ (١٨) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ  
مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ  
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩) .

### المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الحجة على أهل الكتاب عامة بين ما كفر به النصارى خاصة .

## الإيضاح

( لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ) المسيحيون في هذا العصر فرق ثلاث: الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت ( أى إصلاح النضرائية ) وهذا المذهب الأخير حدث من نحو أربعة قرون وصار هو المذهب السائد في أعظم الأمم مدنية وارتقاء كالولايات المتحدة وإنجلترا وألمانيا ؛ وقد أزال هذا المذهب كثيرا من التقاليد والخرافات النضرائية التي كانت قبله واستبدل بها تقاليد أخرى ، ومع كل هذا فهولاء المصلحون لم يستطيعوا أن يرجعوا المسيحية إلى التوحيد الصحيح الذي هو دين المسيح ودين سائر الأنبياء ، فلا يزالون يقولون بألوهية المسيح وبالثلث ويعدون الموحد غير مسيحي كما تقول بذلك الفرقتان الكبيرتان الأخريان .

وجميع فرق النصارى في هذا العصر تقول : إن الله هو المسيح بن مريم وإن المسيح بن مريم هو الله ، ولكن النصارى القديما لم يكونوا متفقين على هذه العقيدة إذ كان بعضهم يفسر الأب والابن وروح القدس بأنها الوجود والعلم والحياة والقول بها لا ينافي توحيد الخالق ، كما أنه يوجد الآن في نصارى أوربة وغيرهم من الموحدين الذين يعتقدون أن المسيح نبي ورسول لا إله .

قال الدكتور بوست البروتستانتى في تاريخ الكتاب المقدس ( طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر : الله الأب ، الله الابن ، والله الروح القدس ، فأبى الأب ينتمى الخلق بواسطة الابن وإلى الابن القدى وإلى الروح القدس التطهير ) غير أن هذه الثلاثة الأقانيم تتقاسم جميع الأعمال على السواء ، والعمدة عندهم في هذه العقيدة عبارة جاءت في إنجيل يوحنا وهى ( فى البدء كانت الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، والله هو الكلمة ) وقد فسروا الكلمة بالمسيح فيصير معنى الفقرة الثالثة من إنجيل يوحنا ( والله هو المسيح بن مريم ) وهذا عين ما أسنده القرآن إليهم .

ولا شك أن هذه العقيدة وثنية أخذت عن قدماء المصريين والبراهمة والبوذيين وغيرهم من وثنى الشرق والغرب .

( قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ) أى قل أيها النبى الكريم لهؤلاء النصارى : من يقدر على دفع الهلاك والموت عن المسيح وأمه بل عن سائر الخلق جميعا إن أراد أن يهلكهم ويبيدهم .  
وخلاصة هذا — إن المسيح وأمه من الخلقوات القابلة للفناء والهلاك كسائر أهل الأرض فإذا أراد الله أن يهلكهما ويهلك أهل الأرض جميعا لا يستطيع أحد أن يردَّ إرادته ، لأنه هو مالك الملك الذى يصرفه بمقتضى مشيئته وإرادته ، وإذا كان المسيح لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ولا عن أمه الهلاك كما لا يستطيع أن يدفعه عن غيره ، فكيف يكون هو الله الذى بيده ما كوت كل شيء .

( والله ملك السموات والأرض وما بينهما ) أى فمن يملك من الله شيئا إن أراد إهلاك المسيح وأمه وأهل الأرض قاطبة وهو صاحب الملك المطلق والتصرف فى السموات والأرض وما بينهما أى ما بين العالمين بالنسبة إليكم .

( يخلق ما يشاء ) أى إن تلك الشبهة التى عرضت لكم وجعلتكم تزعمون أن المسيح بشر وإله — هو أنه خلق على غير السنة العامة وأنه عمل أعمالا عجيبة لا تصدر من عامة البشر ، فالله له ملك السموات والأرض ويخلق الخلق على مقتضى مشيئته ، فقد يخلق بعض الأحياء من مادة لا توصف بذكورة ولا أنوثة كأصول أنواع الحيوان ومن ذلك أبو البشر آدم عليه السلام ، وقد يخلق بعضها من أنثى فقط ، وقد يخلق بعضها من ذكر وأنثى ، وشكل الخلق وسببه لا يدل على امتياز لبعضها عن بعض ولا على الوهية لبعضها ولا حلول الإله الخالق فيها ، وكذلك سنة الله فى خلق المسيح ومزايه لا تدل على كونه إلها وربا لأن هذه المزايا فى الخلق كلها بمشيئة الخالق ولا يخرج بها الخلق عن كونه مخلوقا .

( والله على كل شيء قدير ) أى إنه تعالى يخلق ما يشاء فتارة يخلق الإنسان من الذكر والأنثى ، وتارة بدون أب ولا أم كما فى آدم ، وأخرى من أم ولا أب له كما فى عيسى عليه السلام إذ كل ما تعلقت به مشيئته ينفذ بقدرته وإنما يعدّ بعضه غريباً بالنسبة إلى علم البشر الناقص لا بالنسبة إليه تعالى ، وكذلك غرابية بعض أفعالهم قد تكون عن علم كسبيٍّ يجهله غيرهم أو عن تأييد ربانى لا صنع لهم فيه ولا تأثير .

روى ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أبى وجرى بن عمرو وشاس بن عدى فكلهم وكلوه ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته فقالوا : ما نخوفنا يا محمد ؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه كما قالت النصرارى ذلك فأنزل الله فيهم :

( وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ) إلى آخر الآية ، وقد جاء إطلاق هذا اللفظ فى الإنجيل على الملائكة وعلى المؤمنين الصالحين كما حكاه متى فى وعظ المسيح على الجبل من قوله : ( طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون ) وكقول بولس فى رسالته إلى أهل رومية ( لأن كل الذين يتقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله ) ومن هذا يعلم أن ( ابن الله ) يستعمل فى كتبهم بمعنى حبيب الله الذى يعامله معاملة الأب لابنه من الرحمة والإحسان والتكريم ، ولكن النصرارى تحكّموا فى هذا اللقب فجعلوه بمعنى الابن الحقيقى للمسيح وبال معنى المجازى بالنسبة إلى غيره من الصالحين .

وقد رد الله عليهم بقوله لنبية :

( قل فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر من خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ) أى قل لهم أيها النبى إذا كان الأمر كما زعمتم فلم يعذبكم الله بذنوبكم فى الدنيا كما ترون من تخريب الوثنيين لمسجدكم الأكبر ولبلدكم المرة بعد المرة ومن إزالة ملككم من الأرض ، والأب لا يعذب ابنه والحبيب لا يعذب حبيبه فليست إذا

أبناء الله ولا أحبائوه، بل أنتم بشر من جملة ما خلق، والله سبحانه لا يجازي أحدا، وإنما يعفر لمن يعلم أنه مستحق للمغفرة ويعذب من يعلم أنه مستحق للعذاب، فارجعوا عن غروركم بأنفسكم وسلفكم وكتبكم، فكل هذا لا يجزيكم قليلا ولا قطميرا وإنما الذي ينفعكم هو الإيمان الصحيح وصالح الأعمال، فالجزاء إنما يكون عليها لا على الأسماء والألقاب.

( والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ) أى إنه تعالى الخالق ذو التصرف المطلق فى كل شىء بمقتضى علمه وحكمته وعدله وفضله، وجميع الخلوقات عبيد له لأبناء ولا بنات «إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا» وفى ختمها بقوله «وإليه المصير» إشارة إلى أنه سيعدبهم فى الآخرة على هذا الكفر والدعاوى الباطلة وأنهم عند ما يصيرون إليه يعملون أنهم عبيد آبقون يجازون، لأبناء ولا أحبباء يجابون.

وقد كان اليهود يعتقدون أنهم شعب الله الخاص ميزهم عن سائر البشر، فليس لشعب آخر أن يطلب مساواته بهم وإن كان أصح منهم إيمانا وأصلح أعمالا، ولا ينبغي أن يتبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم لأنه عربى لا إسرائيلى والفاضل لا يتبع المفضول، والله لا يعاملهم إلا معاملة الوالد لأبنائه الأعمام، والنصارى قد زادوا عليهم غرورا فهم قد ادعوا أن المسيح فداهم بنفسه وأنهم أبناء الله بولادة الروح، والمسيح ابنه الحقيقى ويخاطبون الله تعالى بلقب الأب.

وقد جاهد النبي صلى الله عليه وسلم غرور اليهود جهادا عظيما ولم يجِدْ ذلك فيهم شيئا فرفضوا دعوته وردوا ما جاءهم به من أن العمل مرضاة الله وبه تنال تركية النفس وإصلاحها كما جاهد صلف النصارى وكبرهم، وكانوا زمن التنزيل أشد من اليهود فسادا وظلما وعدوانا بشهادة المؤرخين، ومع كل هذا يدعون أنهم أبناء الله وأحبائوه وأنهم ليسوا فى حاجة إلى إصلاح دينهم ولا دنياهم كما فعل اليهود مثل ذلك.

والخلاصة - إن هذه الآيات تبين لنا سنة الله في البشر وأن الجزاء إنما يكون على الأعمال لا على الأسماء والألقاب .

(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل) أى قد جاءكم رسولنا الذى بشرتم به فى كتبكم وأخبركم به أنبيأؤكم ، فقد جاء على لسان موسى (أنه سيقم نبيا من بنى إسماعيل إخوتكم) وعلى لسان عيسى (أنه سيجيء البارقلىط روح الحق الذى يعلمكم كل شئ) وفى الإنجيل الرابع إن اليهود أرسلوا كهنة ولاويين (أخبارا) فسألوا يوحنا عليه السلام : أنت المسيح ؟ قال لا . أنت إيليا ؟ قال لا . أنت النبي ؟ قال لا .

هذا الرسول هو محمد بن عبد الله النبى الأمى يبين لكم على فترة من الرسل أى على انقطاع منهم وطول عهد بالوحى ، جميع ما أتم فى حاجة إليه من أمور دينكم ودنياكم من عقائد أفسدتها عليكم نزغات الوثنية ، وأخلاق وآداب صحيحة أفسدها عليكم إفراطكم فى الأمور المادية والروحية ، وعبادات وأحكام تصلح أمور الأفراد والمجتمع .

ويدخل فى ذلك ما بينه لكم مما كنتم تخفون من الكتاب لإقامة الحججة عليكم ، ولولا أنه رسول من عند الله لما تسنى له أن يعرف شيئا مما جاء به .

وقد أرسل محمد صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل ، وقد فشا التغيير والتحريف فى الشرائع المتقدمة لتقادم عهدها وطول زمانها فاختلط فيها الحق بالباطل والصدق بالكذب وصار ذلك عذرا ظاهرا فى إعراض الخلق عن العبادات ، إذ لهم أن يقولوا يا إلهنا عرفنا أنه لا بد من عبادتك ولكن كيف نعبدك فبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فى ذلك الحين لإزالة هذا العذر ، وهذا معنى قوله :

(أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير) أى إننا إنما بعثناه إليكم كراهة أن تقولوا ما جاءنا من بشير يبشرنا بحسن العاقبة للمؤمنين وينذرنا بسوء عاقبة المفسدين الضالين

( فقد جاءكم بشير ونذير ) يبين لكم أمر النجاة والخلاص والسعادة الأبدية وأنها منوطة بالإيمان والأعمال وأن الله لا يجابي أحدا .

( والله على كل شيء قدير ) ومن دلائل قدرته نصر نبيه صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته في الدنيا ، وفي ذلك رمز لكم إن كنتم من ذوى الأحلام إلى ما يكون له من المنزلة في الدار الآخرة .

روى ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود إلى الإسلام فرغبهم فيه وحذرهم فأبوا عليه فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عباد وعقبة بن وهب : يا معشر يهود اتقوا الله فوالله لتعلمن أنه رسول الله ، لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته ، فقال رافع بن حريملة ووهب بن يهوذا: إنا ما قلنا لكم هذا وما أنزل من كتاب من بعد موسى ولا أرسل الله بشيرا ولا نذيرا بعده فأنزل الله الآية .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَالًا يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠)  
يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢)  
قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتْوَا كَلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣)  
قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ

فَقَاتِلَا إِنَّا هُمَنَا فَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي  
فَأَفْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحْرَمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ  
سَنَةً يَتِيمُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) .

### المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الحجة على بنى إسرائيل وأثبت لهم رسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بما أوحاه إليه بشأنهم وشأن كتبهم وأنبياءهم من البشارات وأخبار الغيب وتحريف الكتب ونسيان حظ منها وأيد ذلك بدحض شبهاتهم وإبطال غرورهم وهم مع كل هذا لم يزدادوا إلا كفرا وعنادا - قض علينا في هذه الآيات خيرا من أخبارهم مع موسى عليه السلام وهو المنقذ لهم من الرق والعبودية واضطهاد المصريين لهم إلى الحرية والاستقلال لكنهم مع هذا كله كانوا يخالفونه ويعصون أوامره - ليعلم الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن مكابرتهم للحق خلق من أخلاقهم توارثها من أسلافهم وتواصلت في طبائعهم فلا بدع إذا هم أعرضوا عن دعوتك وصدوا عن هديك - وفي هذا من تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى ، إلى ما فيه من زيادة معرفة طبائع الأمم وسنن الاجتماع البشرى .

### الايضاح

(وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين ) أى واذا ذكر أيها الرسول الكريم لبنى إسرائيل وسائر من تبلغهم دعوتك حين قول موسى لقومه بعد أن أقدمهم من ظلم فرعون وقومه وأخرجهم من ذلك البلد الظالم أهله : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم واشكروه على ذلك بالطاعة له ، لأن ذلك يوجب مزيدها كما قال تعالى :

« لَنْ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ » وتركها يوجب المؤاخذاة والعذاب الشديد كما قال تعالى « وَلَنْ كُفِّرْتُمْ إِنْ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » .

وقد بين لهم موسى أصناف هذه النعم التي منحها لهم مولاهم وحصرها في ثلاثة أشياء :

(١) وهو أرفعها قدرا وأعلاها ذكرا أنه جعل كثيرا منهم أنبياء كوسى وهرون ومن كان قبلهما ، وقد حكى ابن جرير أن السبعين الذين اختارهم موسى ليصعدوا معه الجبل حين يصعده لمناجاة ربه صاروا كلهم أنبياء ، والمعروف أن النبوة عند أهل الكتاب المراد منها الإخبار ببعض الأمور الغيبية التي تقع في المستقبل بوحي أو إلهام من الله عز وجل ، وقد كان جميع أنبيائهم من بعد موسى يحكمون بما في التوراة ويعملون بها حتى المسيح عليه السلام .

(٢) أنه جعلهم ملوكا ، والمراد من الملك هنا الحرية في تدبير أمورهم وأمور أسرتهم بأنفسهم ، وفي هذا من تعظيم هذه النعمة ما لا يخفى ، يؤيد هذا ما رواه أبو سعيد الخدرى مرفوعا « كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم وداية وامرأة كتب ملكا » ، وما رواه أبو داود عن زيد بن أسلم « من كان له بيت وخادم فهو ملك » .

ولا شك أن من كان متمتعا بمثل هذا كان متمتعا بنحو ما يتمتع به الملوك من الراحة والحرية في التصرف في سياسة بيته ، والناس يقولون إلى الآن لمن كان مخدوما مع عشرته هائثا في معيشته مالكا لمسكنه ( هذا ملك - أو ملك زمانه ) يريدون أنه يعيش عيشة الملوك .

(٣) أنه آتاهم مالم يؤت أحدا من العالمين أى على زمانه وشعوبه التي كانت مستعبدة للظغاة من الملوك ؛ فقد خصهم بأنواع عظيمة من الإكرام ، فقد فلق البحر لهم وأهلك عدوهم وأورثهم أموالهم وأنزل عليهم المن والسوى وأظل فوقهم الغمام .

وبعد أن ذكرهم موسى بهذه النعم وشرحها لهم أمرهم بمجاهدة العدو وأبان لهم أن الله ناصرهم ما نصره فقال :

( يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ) المقدسة المطهرة من الوثنية لما بعث الله فيها من الأنبياء الدعاة إلى التوحيد ، روى ابن عساكر عن معاذ ابن جبل أن الأرض المقدسة ما بين العريش إلى الفرات ، وبعضهم يسمي القسم الشمالي من هذا القطر باسم سورية والباقي باسم فلسطين أو بلاد المقدس أو الأرض المقدسة أو أرض الميعاد ، لأن الله وعد بها إبراهيم ويدخل فيما وعد الله به إبراهيم الحجاز وما جاوره من بلاد العرب .

فقول موسى : كتب الله لكم ، يريد به ما وعد الله به إبراهيم من حق السكنى في تلك البلاد المقدسة لأن المراد أنها تكون كلها ملكا لهم لا يراحمهم فيها أحد لأن هذا مخالف للواقع ولن يخلف الله وعده ، فاستنباط اليهود من ذلك الوعد أنه لا بد أن يعود لهم ذلك الملك ليس بصحيح .

ونص هذا الوعد في سفر التكوين من التوراة إنه لما مر إبراهيم بأرض الكنعانيين ظهر له الرب وقال : ( لنسلك أعطى هذه الأرض ) وجاء فيه أيضا في ذلك اليوم قطع الرب مع إبراهيم ميثاقا فائلا : ( لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات ) .

( ولا ترددوا على أدباركم فتتقلبوا خاسرين ) أى لا ترجعوا عما جئتمكم به من التوحيد والعدل والهدى والرشاد إلى الوثنية والفساد في الأرض بالظلم والبغى واتباع الأهواء فإن في هذا الرجوع خسرانا لكم ، إذ تخسرون فيه هذه النعم ومنها الأرض المقدسة التي ستمطونها جزاء شكركم فتحرمون من خيراتها وبركاتها ، وقد جاء في بعض أوصافها ( إنها تفيض لبنا وعسلا ) وتماقبون بالتيه أربعين سنة ينقرض فيها المرتدون على أدبارهم .

( قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنما لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإننا داخلون ) الجبار لفة الطويل القوى المستكبر العاتى المتمرد الذى يجبر غيره

على ما يريد من قولهم نخلة جبارة أى طويلة لا ينال ثمرها بالأيدى .  
 كان سكان تلك البلاد فى ذلك الحين هم بنى عناق وكانوا أولى قوة وبأس ،  
 طوال القامة ضخام الأجسام ، وقد ورد فى وصفهم فى الاسرائيليات من الخرافات  
 التى كان يثبها اليهود فى المسلمين ما لا يصدقه العقل ولا ينطبق على ما عرف من سنن  
 الله فى خلقه كقولهم : إن العيون الاثنى عشر (الجواسيس) الذين بعثهم موسى إلى  
 ما وراء الأردن ليتجسسوا ويخبروه بحال تلك الأرض ومن فيها قبل أن يدخلها  
 قومه رآهم أحد الجبارين فوضعهم كلهم فى كسائه وفى رواية أخرى أن أحدهم كان  
 يحنى الفاكة فكان كذا أصاب واحدا من هؤلاء العيون وضعه فى كه مع الفاكة -  
 إلى نحو أولئك من روايات بعيدة عن الصدق فالمصريون هم هم ونسل الكنعانيين  
 مشاهد معروف لا يمكن أن تكون أصوله على ما وصفوا .

وهذه القصة مبسطة فى السفر الرابع من أسفار التوراة فقيها : إن الجواسيس  
 تجسسوا أرض كنعان كما أمروا وأنهم قطعوا فى عودتهم زرجونة فيها عنقود عنب  
 واحد حملوه بعنتلة بين اثنين منهم مع شئ من الزمان والتين وقالوا لموسى وهو فى ملأ  
 بنى إسرائيل : قد صرنا إلى الأرض التى بعثتنا إليها فإذا هى بالحقيقة تدر لنا وعسلا  
 وهذا ثمرها غير أن الشعب الساكنين فيها أقوىاء والمدن حصينة عظيمة جدا ورأينا  
 ثم أيضا بنى عناق - إلى أن قال وقد رأينا ثم من الجبارة جبارة بنى عناق فصرنا  
 فى عيوننا كالجراد ، وكذلك كنا فى عيونهم - وذكر فى فصل آخر تذر بنى إسرائيل  
 من أمر موسى لهم بدخول تلك الأرض ، وأنهم بكوا وتمنوا لو أنهم ماتوا فى أرض  
 مصر أو فى البرية وقالوا : لماذا أتى الرب إلى هذه الأرض حتى نسقط تحت السيف  
 وتصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة ، أليس خيرا لنا أن نرجع إلى مصر؟ الخ

والخلاصة - إن موسى لما قرب بقومه من حدود الأرض المقدسة العامرة الآهلة  
 أمرهم بدخولها مع الاستعداد لقتال من يقاثلهم من أهلها ، وإنهم لما غلب عليهم من  
 الضعف والذل واضطهاد المصريين لهم وظلمهم إياهم ، أبوا وتمردوا واعتذروا بضعفهم

وقوة أهل تلك البلاد وحاولوا الرجوع إلى مصر وقالوا لموسى إنا لن ندخل هذه الأرض ما دام هؤلاء الجبارون فيها ، وقولهم ( فإن يخرجوا منها فإننا داخلون ) تأكيد لما فهم مما قبله مشعر بأنه لا علة لامتناعهم إلا ما ذكره .  
وفى إجابتهم هذه دليل على منتهى الضعف وخور العزيمة وعلى أنهم لا يريدون أن يأخذوا شيئاً باستعمال قواهم البدنية ولا العقلية ، ولا أن يدفعا الشر عن أنفسهم ولا أن يجلبوا لها الخير ، بل يريدون أن يعيشوا بالخوارق والآيات ما داموا في هذه الحياة .

ولا شك أن أمة كهذه لا تستحق أن تتمتع بنعيم الاستقلال وتحيا حياة العز والكرامة وتكون ذات تصرف مطلق في شؤونها ، ومن ثم لم تقم لها دولة بعدُ « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

( قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ) قوله : يخافون أى يخافون الله تعالى ، وقوله : أنعم الله عليهما أى بالطاعة والتوفيق لما يرضيه حتى في حال الخوف والذعر ، والتوراة وتبعها المفسرون قاطبة على أن الرجلين هما يوشع بن نون وكالب بن يفتنة ، وأنها كانا يحثان التوم على الطاعة ودخول أرض الجبارين ثقة بوعد الله بالنصر وتأيبده إياهم .

( ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ) أى ادخلوا عليهم باب المدينة ، فإذا فعلتم ذلك نصركم الله وأيدكم بروح من عنده بعد أن تعاملوا مافى طاقتكم من طاعة ربكم وثقتوا به فيما لا يصل إليه كسبكم إن كنتم مؤمنين بأن وعد الله حق وأنه قادر على الوفاء به ، وإنما جزم هذان الرجلان بأنهم سيغلبون إذا دخلوا ثقة بنبوة موسى وهو قد أخبرهم بأن الله أمرهم بدخول الأرض المقدسة التى كتبها لهم ، لا جرم قطعاً بالنصر والغلبة على العدو .

( قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ) أى إنهم أصروا على العناد والتمرد ولم تعن عنهم عظات الرجلين .

شيئا ، فأكدوا لموسى أنهم لا يدخلون هذه الأرض مدى حياتهم مادام فيها الجبارون ، لأنهم لا طاقة لهم بالحرب والقتال إذ ليسوا من أهله ، فإن صحت عزيمتك على ذلك فاذهب أنت وربك الذى أمرك بذلك فقاتلا الجبارين وأخرجاهم من هذه الأرض وإنا هاهنا قاعدون منتظرون .

وهذا القول الذى صدر منهم يدل على منتهى الجفاء والبعد عن الأدب وليس هذا بالغريب من أمثال هؤلاء الذين عبدوا العجل وكان دأبهم الشغب مع أنبيائهم وقتلوا كثيرا منهم كإشعيا و زكريا وقص القرآن كثيرا من فساد طباعهم وقسوتهم وغلظتهم .

( قال رب إني لا أملك إلا نفسى وأخى ) أى قال موسى باثنا شكواه إلى ربه معذرا من فسق قومه عن أمره الذى يبيلغه عن ربه - إني لا أملك أمر أحد أحملة على طاعتك إلا أمر نفسى وأمر أخى ولا أثق بغيرنا أن يطيعك فى اليسر والعسر والمنشط والمكره ( المحبوب والمكروه ) .

وفى هذا إيماء إلى أنه لم يكن موقنا بثبات يوشع وكالب ورغبتهما فى الطاعة إذا أمر الله بدخول أرض الجبارين والتصدى لقتالهم ، فإن من يجرو على القتال مع الجيش الكبير فرما لا يجرو عليه مع العدد القليل ، وأما ثقته بأخيه فلما رأى من بلائه معه فى مقاومة فرعون وقومه ولسياسة أمور بنى إسرائيل عند مناجاة ربه ، ولما يعلم من تأييد الله له بمثل ما أيده به .

( فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ) الفرق : الفصل بين الشئين أو الأشياء أى فافصل بيننا ( يزيد نفسه وأخاه ) وبين القوم الفاسقين عن طاعتك بقضاء تقضيه بيننا فتحكم لنا بما نستحق ، وعليهم بما يستحقون فقد صرنا خصما لهم وصاروا خصما لنا ، وقيل إن المعنى : إنك إذا أخذتهم بالعقاب على قسوتهم فلا تعاقبنا معهم فى الدنيا . ( قال فإنها محزنة عليهم أربعين سنة يتيمون فى الأرض ) التيه الخيزة ، يقال تاه يتيه : إذا تحير ومفازة تيهاء إذا تحير فيها سالكها لعدم الأعلام التى يهتدى بها ،

والتحريم : المنع أى قال الله لموسى مجيبا دعوته : إن الأرض المقدسة محرمة على بنى إسرائيل تحريما فعليا لا تكليفا شرعيا مدة أربعين سنة يتيهون فيها فى الأرض أى يسيرون فيها فى برية تأهين متحيزين لا يدرون أين مصيرهم .

( فلا تأس على القوم الفاسقين ) الأسمى الحزن يقال أسيت عليه أسى وأسيت له

أى فلا تحزن عليهم ، لأنهم فاسقون متمردون مستحقون لهذا التأديب الإلهى .

جاء فى الفصل الرابع من سفر العدد أن بنى إسرائيل لما تردوا وعصوا أمر ربهم ، سقط موسى وهرون على وجوههما أمامهم ، وأن يوشع وكالب مزقا ثيابهما ونهيا الشعب عن التمرد وعن الخوف من الجبارين ليطيع ، فهم الشعب برجمهما وظهر مجد الرب لموسى فى خيمة الاجتماع ( وقال الرب لموسى : حتى متى يهيننى هذا الشعب ؟ وحتى متى لا يصدقونى بجميع الآيات التى عملت فى وسطهم ؟ إنى أضربهم بالوباء وأبيدهم وأصيرك شعبا أكبر وأعظم منهم ) فشفع موسى فيهم لثلاثين يوما المضربون ، وبه تقبل الرب شفاعته ثم قال ( إن جميع الرجال الذين رأوا مجدى وآياتى التى عملتها فى مصر وفى البرية وجرى بونى الآن عشر مرات ولم يسمعوا قولى ، لن يروا الأرض التى خلقت لأبائهم ، وجميع الذين أهانونى لا يرونها ) واستثنى الرب كالب فقط ... ( أنا الرب قد تكلمت لأفعلن هذا وكل هذه الجماعة الشريرة المتنفقة على ، فى هذا القفر يفنون وفيه يموتون ) .

وإن فى هذا العقاب الإلهى عبرة لأولى الألباب ، يستفيدون منها أن الشعوب التى تنشأ فى مهد الاستعباد تذهب أخلاقها ويذهب بأسها وتضرب عليها الذلّة والمسكنة وتأنس بالمهانة ، وإذا طال عليها الأمد أصبحت تلك الصفات غرائز وطبعا خلقية لها فإذا خرجوا من بيوتهم ورفع عنهم نير الظلم والاستعباد حنوا إلى ما كانوا فيه وتافت نفوسهم إلى الرجوع إليه ، وهذا شأن البشر فى جميع ما يأنفون ، ويجرون عليه من خير وشر .

وقد أفسد ظلم الفرعنة فطرة بنى إسرائيل في مصر وطبع عليهم بطابع الذلّة والمهانة ، وقد أراهم الله تعالى مالم ير أحدا من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته وصدق رسوله موسى عليه السلام ، وبين لهم أنه أخرجهم من مصر لينقذهم من العبودية إلى نعيم الحرية ، ومع هذا كله كانوا إذا أصابهم نصب أو جوع أو كلفوا أمرا يشق عليهم يتظيرون بموسى ويذكرون مصر ويحنون إلى العودة إليها ، وحين غاب عنهم لمناجاة ربه اتخذوا لهم معجلا من حلبيهم وعبدوه وكان الله يعلم أن نفوسهم ميتة لا تطيعهم على دخول أرض الجبارين وأن وعده تعالى لأجدادهم إنما يتم إذا هلك ذلك الجيل الذى نشأ فى الوثنية ونشأ بعده جيل فى حرية البداوة وعدل الشريعة .

وعلى هذه السنة العادلة أمر الله بنى إسرائيل بدخول الأرض المقدسة بعد أن أراهم عجائب تأييده لرسوله لكنهم أبوا واستكبروا فأخذهم بذنوبهم وأنشأ من بعدهم قوما آخرين جعلهم الأئمة الوارثين بهمهم الموافقة لسنة فى الاجتماع .

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَهُ بَابًا نَا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا  
وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)  
لَنْ بَسَطْتُ إِلَى يَدِكَ لَتَقَتِّلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدَى إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي  
أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ بِإِغْمَى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ  
مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ  
أَخِيهِ فَفَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ (٣٠) فَبِعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ  
فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ  
أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ  
 أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا  
 أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ  
 يَْعُدُّونَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) .

### شرح المفردات

التلاوة: القراءة، ولا تكاد تستعمل إلا في قراءة كلام الله تعالى ، والنبأ: الخبر الذي  
 يهتم به لفائدة ومنفعة عظيمة ، والقربان : ما يتقرب به إلى الله تعالى من الذبائح وغيرها ،  
 وهو في الأصل مصدر فلهذا يستوى فيه الواحد وغيره، وبسط اليد إليه: مدها ليقبله؛  
 البوء: اللزوم ، وفي النهاية لابن الأثير: أبوء بنعمتك على وأبوء بذنبي أى ألزمت وأقر ،  
 فطوعت أى فشجعت وزينت، والسوءة: ما يسوء ظهوره، والويل حلول الشر، والويللة:  
 الفضيحة والبلية أى وافضيجته، والأجل: في الأصل الجناية، يقال أجل عليهم شرا  
 أى جنى عليهم جناية ثم استعمل في تعليل الجنايات ، ثم اتسع فيه فاستعمل في كل  
 سبب ، والبيّنات الآيات الواضحة، والإسراف: التبعد عن حد الاعتدال مع عدم المبالاة .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه حسد اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم وإعراضهم عن  
 دعوته مع وضوح البرهانات الدالة على صدقه وكثرة الآيات المثبتة لنبوته ، حتى هم  
 قوم منهم أن يبسطوا أيديهم لقتله وقتل كبار أصحابه ، كما ذكر ذلك في قوله :  
 « إِذْ هَمُّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ » ذكر هنا قصة  
 ابني آدم بيانا لكون الحسد الذي صرف اليهود عن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم  
 وحملهم على عداوته عريفا في الآدميين وأنرا من آثار سلفهم كان لهؤلاء منه الحظ الأوفر

فلا تعجب من حالهم بعد هذا ، فإن لهم أشباها ونظائر في البشر كابني آدم ، وقد حدث بينهم من أجل التحاسد سفك الدماء وقتل الأخ أخاه وبذر تلك البذور السيئة في نبي آدم إلى قيام الساعة .

## الإيضاح

(واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق) جمهرة العلماء على أن هذين الابنين هما ابنا آدم من صلبه ، وفي سفر التكوين أنهما أول أولاد آدم ، اسم أحدهما قين أو قايين وهو اليكر ، وسماه المفسرون والمؤرخون من المسلمين قاييل وهو القاتل ، واسم الثاني هابيل وهو المقتول ؛ وقد ذكروا روايات غريبة عنهما لا تعرف إلا من الوحي وفي وصف الله تعالى مقاله «بالحق» دليل على أن ما يلوكة الناس سوى ذلك فباطل .

أى واتل أيها الرسول على أهل الكتاب وغيرهم من الناس ذلك النبأ العظيم نبأ ابني آدم تلاوة كاشفة للحق مظهرة له مبينة لفرائر البشر وطبائعهم ، وهي أنهم جبلوا على التباين والاختلاف الذي يقضى إلى التحاسد والبغى والقتل ، ليعلموا الحكمة فيما شرعه الله في عقاب البغاة من الأفراد والجماعات ويفقهوا أن بغى اليهود على الرسول والمؤمنين ليس من دينهم في شيء ، وإنما ذلك للحسد والبغضاء ؛ فما مثلهم إلا مثل ابني آدم إذ حسد شرهما خيرهما فبغى عليه فقتله وكان مآله ما بينه الله في الآيات بعد .

(إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر) أى اتل عليهم نبأهما وقت تقديم كل منهما قربان وما تبعه من البغى والدوان فتقبل الله من أحدهما قربانه لتقواه وإخلاصه وطيب نفسه به ولم يتقبل من الآخر لعدم التقوى والإخلاص ، ولم يبين لنا سبحانه كيف علما أنه تقبل من أحدهما دون الآخر ، وربما كان ذلك بوحي من الله لأبيهما آدم عليه السلام .

وروى عن ابن عباس وابن عمر وغيرهما أن أحدهما كان صاحب حرث وزرع

فقرّب شراً ما عنده وأردأه غير طيبة به نفسه، وكان الآخر صاحب غنم وقرب أكرم غنمه وأسمها وأحسنها طيبة به نفسه، كما روى عن بعضهم أن القربان المقبول كانت تجيء النار من السماء لتأكله ولا تأكل غير المقبول، وكل هذا من الأخبار الإسرائيلية التي ليس لها مستند يوثق به، والقرايين عند اليهود أنواع :

( منها ) الحرقّات للتكفير عن الخطايا بدم ذكور البقر والغنم السالمة من العيوب

( ومنها ) التقدّمات من الدقيق والزيت والألبان .

( ومنها ) ذبائح السلامة لشكر الرب تعالى .

والقربان عند النصارى ما يقده الكاهن من الخبز والخمر فيتحول في اعتقادهم إلى لحم المسيح ودمه حقيقة .

والقربان عند المسلمين اسم للذبائح النسك كالأضاحي وغيرها .

( قال لأتلتك ) أى إن من لم يتقبل منه توعد أخاه وحلف ليقتلنه فأجاب الآخر أحسن جواب .

( قال إنما يتقبل الله من المتقين ) أى لا يقبل الله الصدقات وغيرها من الأعمال إلا ممن يتصف بتقوى الله والخوف من عقابه باجتنابه الشرك وسائر المعاصي كالرياء والشح واتباع الأهواء .

وخلاصة جوابه — إننى لم أذنب إليك ذنباً تقتلنى به ، فإن كان الله لم يتقبل قربانك فحاسب نفسك لتعرف سبب ذلك ، فإن الله إنما يتقبل من المتقين ، فاحمل نفسك على تقوى الله والإخلاص له فى العمل ثم تقرب إليه بالطيبات يتقبل منك قال تعالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » وفى الحديث : « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب » .

وفى هذا من العبرة ما كان ينبغى أن يتعظ به المرءون الذين يبغون بما يتصدقون به الصيت واجتلاب الثناء من الناس وحسن الأحدثوة .

ثم بين سبحانه ما يجب للناس من احترام الدماء وحفظ الأنفس ولا سيما بين الإخوة فقال :

( انن بسطت إلى يدك لتقتلى ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك ) أى إن مددت يدك لتقتلى فما أنا بالحجازى لك على السيئة بسية مثلها فذاك لا يتفق مع شمائلى وصفاتى ، إذ لست ممن يتصف بهذه الصفة المنكرة التى تنافى تقوى الله والخوف من عذابه وهذا ما عناه بقوله :

( إني أخاف الله رب العالمين ) أى إني أخاف الله وأخشى أن يرانى باسطا يدي إلى الإجرام وسفك الدماء بغير حق ، وهو رب العالمين الذى يقديهم بنعمه ويريبهم بفضله وإحسانه ، فالاعتداء على أرواحهم أكبر مفسدة لهذه التربية .

ولا شك أن هذا الجواب يتضمن أبلغ الموعظة والاستعطاف لأخيه العازم على الجناية ، وليس فى الكلام ما يدل على عدم الدفاع البتة ، ولكن فيه التصريح بعدم الإقدام على القتل ، وقد روى أحمد والشيخان وغيرهم قوله صلى الله عليه وسلم « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول فى النار، قيل يارسول الله هذا القاتل ! فما بال المقتول ؟ قال إنه كان حريصا على قتل صاحبه » .

ثم ففى على عظته البالغة ونصائح النافعة بالتذكير بعذاب الآخرة ، من قيل أن الوعظ لا يؤثر فى كل نفس فقال :

( إني أريد أن تبوء بإثمى وإثمك ) أى إني أريد بالابتعاد من مقابلة الجريمة بمثلها أن ترجع إن فعلتها ملتبسا بإثمى وإثمك أى بإثم قتلك إياى ، وإثمك الخاص بك الذى كان من آثاره عدم قبول قربانك ، وروى هذا عن ابن عباس .

وقيل إن المراد - أن القاتل يحمل فى الآخرة إثم من قتله إن كان له آثام لأن الذنوب والآثام التى فيها حقوق العباد لا يغفر الله منها شيئا حتى يأخذ لكل ذى حق حقه فيعطى المظلوم من حسنات الظالم ما يساوى حقه إن كانت له حسنات

توازي ذلك ، أو يحمل الظالم من آثام المظلوم وأوزاره ما يوازي ذلك إن كان له آثام وأوزار وما نقص من هذا أوداك يستعاض عنه بما يوازيه من الجزاء في الجنة أو النار . ( فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين ) أى فتكون بما حملت من الإثم من أهل النار في الآخرة جزاء ظلمك ، والنار جزاء كل ظالم . وقد سلك في عظيمة وجوها تأخذ بمجامع اللب ، ويرعوى لها فؤاد المنصف ، فقد تبرأ من كونه سببا في حرمانه من تقبل القربان ، لأن سبب التقبل عند الله هو التقوى .

ثم انتقل إلى تذكيره بما يجب من خوف الله ، ثم إلى تذكيره بأن المعتدى يحمل إثم نفسه وإثم من اعتدى عليه ، ثم إلى تذكيره بمداب النار لأنها مشوى الظالمين . ثم أبان سبحانه أن المواعظ لم تجد فيه فتيلًا ولا قطميرًا ، فمادًا تغنى الزواجر والعظات في نفس الحاسد الظالم ؟ فقال :

( فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ) أى إنه كان يهاب قتل أخيه وتجنب فطرته دونه ، وما زالت نفسه الأمانة تشجعه عليه حتى تجرأ وقتله عقب التطوع بلا تفكير ولا تدبر في العاقبة ، والمشاهد بالاختيار من أعمال الناس أن من تحدثه نفسه بالقتل يجد من نفسه ضارفا أو عدة صوارف تنهاه عن القتل حتى تطوع له نفسه القتل بترجيح الفعل على الترك ، فحينئذ يقتل إن قدر .

( فأصبح من الخاسرين ) أى من الذين خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة ، فهو في الدنيا قد قتل أبر الناس به وهو الأخ التقى الصالح ، وخسر الآخرة لأنه لم يصر أهلا لتعيمها الذى أعد للمتقين .

( فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ) لما كان الإنسان في أعماله موكولا إلى كسبه واختياره ، وكان هذا القتل أول قتل وقع من بنى آدم - لم يعرف القاتل كيف يوارى جثة أخيه المقتول الذى يسبووه أن يراها

بارزة للعيان ، وفي ذلك دليل على أن الإنسان في نشأته الأولى كان ساذجا قليل المعرفة ، لكن لما فيه من الاستعداد والعقل كان يستفيد من كل شيء علما واختبارا وتتمية لمعارفه وعلومه ، وقد أعلمنا الله أن القاتل تعلم دفن أخيه من الغراب ، فإنه تعالى بعث غرابا إلى ذلك المكان الذي هو فيه فبحث في الأرض أى حفر برجليه فيها يفتش عن شيء كالطعام ونحوه فأحدث حفرة في الأرض فلما رآها القاتل - وقد كان متحيرا في مواراة أخيه - زالت الحيرة واهتدى إلى دفنه في حفرة مثلها .

وقوله ليديه : أى إنه تعالى ألهم الغراب ذلك ليتعلم ابن آدم منه الدفن .

وحين رأى القاتل الغراب يبحث في الأرض وتعلم منه سنة الدفن وظهر

له جهله وضعفه :

( قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين ) أى قال وافضحى أقبلى فقد آن الأوان لمجئتك ، فهل بلغ من عجزى أن كنت دون الغراب علما وتصرفا ؟ والندم الذى أظهره من الأمور التى تعرض لكل من يفعل شيئا ثم يتبين له خطأ فعله وسوء عاقبته .

روى البخارى ومسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه « لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم كفل ( نصيب ) من دمه لأنه أول من سن القتل » .

والندم الذى يكون توبة هو ما يصدر من الشخص خوفا من الله وحسرة على تعدى حدوده ، وهو الذى عناه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « الندم توبة » رواه أحمد والبخارى والحاكم والبيهقى .

( من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ) أى إنه بسبب هذا الجرم القطيع والقتل الشنيع الذى فعله أحد هذين الأخوين ظلما وعدوانا فرضنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أى بغير سبب موجب للمصاص ، الذى شرعه فى قوله « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ » الآية ، أو قتل نفسا بغير سبب فساد فى الأرض يسلب

الأمن والطمأنينة وإهلاك الحرث والنسل كما تفعله عصايات الصيود المسلحة المستعدة لقتل الأنفس ونهب الأموال أو إفساد الأمر على الدولة التي تقوم بتنفيذ حدود الله تعالى .

من يفعل شيئا من ذلك فكأنما قتل الناس جميعا . إذ الواحد يمثل النوع ، فمن استحل دمه بغير وجه حق استحل دم كل واحد كذلك لأنه مثله ، والمقصود من ذلك تعظيم أمر القتل العمد العدوان وتفخيم شأنه ، أى فكأن قتل كل الخلق مستعظم مستبشع لدى الناس كلهم فكذلك قتل الواحد مستنزع مستعظم ، وكيف لا يكون مستعظما وقد قال تعالى : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤَمِّناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً » .

( ومن أحيائها فكأنما أحيى الناس جميعا ) أى ومن كان سببا فى حياة نفس واحدة بإنقاذها من موت كانت مشرفة عليه فكأنما أحيى الناس جميعا ، لأن الباعث له على الإنقاذ وهو الشفقة والرحمة واحترام الحياة الإنسانية والوقوف عند حدود الشرائع ، دليل على أنه إذا استطاع أن ينقذهم كلهم من الهلاك لا يدخر وسعا ولا يبنى فى ذلك .

وفى الآية إرشاد إلى ما يجب من وحدة البشر وحرص كل منهم على حياة الجميع والابتعاد عن ضرر كل فرد ، فانتهاك حرمة الفرد انتهاك لحرمة الجميع ، والقيام بحق الفرد بمقدار ما قرر له فى الشرع قيام بحق الجميع ، وتقدم أن قلنا إن القرآن كثيرا ما يشير إلى وحدة الأمة ووجوب تكافلها حتى إنه ليسند أعمال المتقدمين منها إلى المتأخرين ويشير إلى أن جناية الإنسان على غيره تعد جناية على البشر كلهم .

وقد وردت قصة ابني آدم فى الفصل الرابع من سفر التكوين ، فقد جاء فيه : إن قايين لما قدم للرب من ثمرات الأرض وقدم هايليل قريانا من أبقار غنمه ونظر الرب إلى هايليل وقربانه دون أخيه اغناظ قايين وقتل هايليل فسأله الرب عنه : أين هو فأجاب : لا أعلم ، هل أنا حارس لأخى ، فلعنه الرب وطرده عن وجه الأرض فندم

واسترحم الرب وخاف أن يقتله كل من وجده ، فقال له الرب لذلك : كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه ، وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده ، فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرقى عدن .

( ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لسرفون ) أى ولقد جاءتهم الرسل بالآيات الواضحة الناطقة بتقرير ما كتبنا عليهم المؤكدة لوجوب مراعاته والحفاظة عليه لكنها لم تنن عن الكثير منهم شيئا فلم تهذب نفوسهم ولم تظهر أخلاقهم فكانوا بعد كل هذا التشديد عليهم في أمر القتل يسرفون فيه وفي سائر ضروب البغى والعدوان .

والعبرة في قصة ابني آدم أن الحسد كان مثار أول جنابة في البشر ولا يزال هو أس المفسد في المجتمع فترى الحاسد تنقل عليه نعمة الله على أخيه نسيا أو جنسا أو دينيا فيبغى عليه ولو بما فيه ضرره ولهذا المحسود .

والامة التي تنتشر بين أفرادها هذه الرذيلة قلما تتوجه هم أبنائها إلى ما يرق شأنهم بين الأمم الأخرى ، وقلما يتعاونون على ما فيه صلاحهم وتقدمهم في سائر مرافق الحياة فيصبحون عبيدا لسواهم بعد أن كانوا سادة ، وأذلاء ، بعد أن كانوا في عزة وبلهنية من العيش .

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا، أَوْ يُصَلَّبُوا، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ (٣٤) .

## شرح المفردات

المحاربة : من الحرب ضد السلم ، والسلم : السلامة من الأذى والضرر والآفات والأمن على النفس والمال ، والأصل في معنى كلمة الحرب التعدى وسلب المال ، وحرية الرجل : ماله الذي يعيش فيه ، والفساد : ضد الصلاح ، وكل ما يخرج عن وضعه الذي يكون به صالحا نافعا يقال إنه فسد ، ومن كان سببا لفساد شيء يقال إنه أفسده ، فإزالة الأمن على الأنفس أو الأموال أو الأعراض ومعارضته تنفيذ الشريعة العادلة كل ذلك إفساد في الأرض ، والتقتيل : المبالغة في القتل بكونه حتما لا هوادة فيه ولا عفو من ولى الدم ، والتصليب المبالغة في الضرب أو تكرار الضرب كما قال الشافعي : يصلب بعد القتل ثلاثة أيام بأن يربط على خشبة ونحوها منتصب القائمة عمدود اليدين ، وربما طعنوا المصلوب ليعجلوا موته ، وتقطع الأيدي والأرجل من خلاف : معناه إذا قطعت اليد اليمنى تقطع الرجل اليسرى ، والعكس بالعكس ، والنقى من الأرض : النقل من البلد أو القطر الذي أفسدوا فيه إلى غيره من بلاد الإسلام إذا كانوا مسلمين ، فإن كانوا كفارا حاز نقيهم إلى بعض بلاد الإسلام أو بعض بلاد الكفر ، والحزى الذل والفضيحة ، ومن قبل أن تقدروا عليهم : أى من قبل التمكن من عقابهم .

## المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فظاعة جرم القتل وشدد في تبعه القاتل فذكر أن من قتل نفسا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعا - ذكر هنا العقاب الذي يؤخذ به المفسدون في الأرض حتى لا يتجرأ غيرهم على مثل فعلهم ، وقد ذهب أكثر الأئمة إلى أن الآيتين نزلتا في عكزل وعربينة ، فقد روى أحمد والبخارى ومسلم وأحمد اب السنن عن أنس « أن ناسا من عكزل وعربينة قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم وتكلموا

بالإسلام ، فاستوخوا المدينة ( وجدوها رديئة المناخ ) فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بنود ( بضع من الإبل ) وراع وأمرهم أن يخرجوا فليشربوا من أبوالها وألبانها ؛ فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم ، وقتلوا راعي النبي واستاقوا الذود ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فبعث الطلب في آثارهم ، فأمر بهم فسمروا أعينهم ( كحلوها بمسامير الحديد الحمأة ) وقطعوا أيديهم وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم « زاد البخاري أن قتادة الذي روى الحديث عن أنس قال : « بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة » . وروى أبو داود والنسائي عن أبي الزناد « أن رسول الله لما قطع الذين سرقوا لقاحه وسمل أعينهم بالنار ، عاتبه الله في ذلك فأنزل : ( إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا ) « الآية .

## الإيضاح

( إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ) أى إن جزاء الذين يفعلون ما ذكر - عقابهم ما سيذكر بعد على سبيل الترتيب والتوزيع على جنائياتهم ومفاسدهم لكل منها ما يليق بها من العقوبة .

وقد جعل هذا النوع من العدوان محاربة لله ورسوله ، لأنه اعتداء على الحق والعدل الذى أنزله الله على رسوله ولما فيه من عدم الإذعان لدينه وشرعه في حفظ الحقوق كما قال تعالى في المصرين على أكل الربا « فَأَذَنُوا يَحْرَبِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » . فمن لم يذعنوا لأحكام الشريعة يعدوا محاربين لله والرسول ويجب على الإمام الذى يقيم العدل ويحفظ النظام أن يقاتلهم على ذلك كما فعل أبو بكر بمانعى الزكاة ، حتى يفتثوا ويرجموا إلى أمر الله ، ومن رجع منهم في أى وقت يقبل منه ويكف

عنه ، وقوله : ويسعون في الأرض فسادا أى يسعون فيها سعى فساد أى مفسدين لما صلح من أمور الناس في نظم الاجتماع وأسباب المعاش . . . . .  
وجهور العلماء على أن الآية نزلت في قطاع الطريق من المسلمين كما تدل على ذلك حادثة العربيين الذين خدعوا النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين بإظهار الإسلام حتى إذا تمكنوا من الإفساد بالقتل والسلب عادوا إلى قومهم وأظهروا شركهم معهم ، وقد عاقبهم النبي صلى الله عليه وسلم بمثل عقوبتهم عملا بقوله تعالى : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » ويشترط في المحاربين ثلاثة شروط :

(١) أن يكون معهم سلاح وإلا كانوا غير محاربين . . . . .  
(٢) أن يكون ذلك في الصحراء فإن قتلوا ذلك في البنيان لم يكونوا محاربين كما قال أبو حنيفة والثوري وإسحق . . . . .

(٣) أن يأتوا بمجاهرة وبأخذوا المبال ، فإن أخذوه خفية فهم سراق ، وإن اختطفوه وهربوا فهم منتهبون لا قطع عليهم ، وكذا إن خرج الواحد والاثنان على آخر قافلة فاستلبوا منها شيئا لأنهم لا يرجعون إلى قوة ومنعة ، وإن خرجوا على عدد يسير فقهرهم فم قطع طريق . . . . .

والجزاء الذي يعاقب به أمثال هؤلاء المفسدين أحد أنواع أربعة : إما القتل أو الصلب أو تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف أو النفي من الأرض ، وفوض لأولى الأمر الاجتهاد في تقدير العقوبة بقدر الجريمة ، والحسكة في عدم التعيين والتفصيل أن المفاسد كثيرة تختلف باختلاف الزمان والمكان وضررها يختلف كذلك ، فمنها القتل ومنها السلب ومنها هتك الأعراض ومنها إهلاك الحرث والنسل أى قطع الشجر وقلع الزرع وقتل المواشى والدواب أو الجمع بين جر يمتين أو أكثر من هذه المفاسد ، فللإمام أن يقتلهم إن قتلوا ، أو يصلبهم إن جمعوا بين أخذ المال والقتل ، أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف إن اقتصر على أخذ المال ، أو ينفوا من الأرض إن أخافوا الناس وقطعوا عليهم الطرق . . . . .

وهؤلاء المفسدون ضوعفت لهم العقوبات ، فالقتل العمد العدوان يوجب القتل ويجوز لولى الأمر العفو وترك القصاص فنلظ ذلك في قاطع الطريق وصار القتل حتما لا هوادة فيه ولا يجوز العفو عنه ، وأخذ المال يتعلق به قطع اليد اليمنى في غير قاطع الطريق فنلظ في قاطع الطريق يقطع الطرفين ، وإن جمعوا بين القتل وأخذ المال جمع في حقهم بين القتل والصلب ، لأن بقاءهم مصلوهم في ممر الطرق يكون سببا لاشتتار إيقاع هذه العقوبة فيصير ذلك زاجرا لغيرهم عن الإقدام على مثل هذه المعصية ، وإن اقتصروا على مجرد الإخافة عوقبوا بعقوبة خفيفة وهي النفي من الأرض .

( لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ) أى ذلك الذى ذكر من عقابهم - ذل لهم وفضيحة في الدنيا ليكونوا عبرة وعظة لغيرهم من المسلمين ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم بقدر تأثير إفسادهم في تدينس نفوسهم وتدنسيتها وظلمة أرواحهم بما اجترحت من الذنوب والآثام .

( إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ) أى لكم أن تعاقبوا هذا العقاب الذى تقدم ذكره إلا من قطعوا الطريق وعانوا في الأرض فسادا ثم تابوا إلى الله وأنابوا من قبل أن يتمسك منهم الحاكم ويقدر على عقوبتهم ، فإن تابتهم حينئذ وهم في قوة ومنعة جديرة بأن تكون توبة خالصة لله صادرة عن اعتقاد بقبح الذنب والعزم على عدم العودة إلى فعل مثله وليس سببها الخوف من عقاب الدنيا ، وإذا فهم قد تركوا الإفساد ومحاربة الله ورسوله ، ومن ثم لا يجمع لهم بين أشد العقاب في الدنيا والعذاب في الآخرة بل يصيرون لمغفرة الله ورحمته كما قال :

( فاعلموا أن الله غفور رحيم ) أى فاعلموا أن الله غفور لما فرط من ذنوبهم ، رحيم بهم يرفع العقاب عنهم ، وهذه التوبة ترفع عنهم حق الله كله من عقاب في الدنيا والآخرة ، ولكن تبقى حقوق العباد فلمن سلبهم الثائب أموالهم أيام إفساده أن يطالبوه بها ، ولمن قتل منهم أحدا أن يطالبوه بدمه ، وهم يخبرون بين القصاص

والذية والعمو ، فقد ثبتت عن الصحابة إسقاط الحد عن تاب ، ولم يثبت أن أحدا تقاضى التائب حقا ولم يسمع له الحاكم .

وإذا فتوته لا تصح إلا إذا أعاد الأموال المسلوقة إلى أربابها ، فإذا رأى ولي الأمر إسقاط حق مالي عن الفسيد مراعاة للمصلحة العامة وجب أن يضمنه من بيت المال (وزارة المالية) .

والخلاصة — أن هاتين الآيتين تضمنتا عقاب المخارِبين المفسدين في الأرض الذين يعملون أعمالا محلحة بالأمن على الأنفس والأموال والأعراض في بلاد الإسلام معترضين في ذلك بقوتهم مع عدم الإذعان لأحكام الشريعة باختيارهم ، وهو أن يطازدهم الحكام ويتشبهوهم حتى إذا قدروا عليهم عاقبوهم بتلك العقوبات بعد تقدير كل مفسدة بقدرها ومراعاة للمصلحة العامة ، ومن تاب قبل القدرة عليه لا يعاقب بما هنا من العقوبات بل حكمه حكم سائر المسلمين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تَقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧)

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه فيما سلف أن اليهود قد هموا بيلسط أيديهم إلى الرسول حسدا منهم له وغرورا بدينهم واعتقادا منهم أنهم أبناء الله وأحباؤه — أمر المؤمنين بأن يتقوه وابتغوا إليه الوسيلة بالعمل الصالح ولا يفتنوا بدينهم كما فعل أهل الكتاب.

## الإيضاح

( يأبىها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ) اتقاء الله هو اتقاء سخطه وعقابه بعدم مخالفة دينه وشرعه ، والوسيلة ما يتوصل به إلى مرضاته والقرب منه واستحقاق ثوابه في دار الكرامة .

روى ابن جرير عن قتادة أنه قال في تفسير الآية أى تقر بوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه ، وروى أحمد والبخارى وأصحاب السنن من حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يسمع النداء - الأذان - اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته ، حلت له شفاعتى يوم القيامة » وروى أحمد ومسلم من حديث عبد الله بن عمر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا على فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه عشرا ثم سلوا لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبيد من عباد الله وأرجو أن أكون هو فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » .

وبهذا يعلم أن هذه الوسيلة هى أعلى منازل الجنة فمن دعا الله تعالى أن يجعلها للنبي صلى الله عليه وسلم كافأه النبي صلى الله عليه وسلم بالشفاعة وهى دعاء أيضا ، والجزء من جنس العمل .

( وجاهدوا فى سبيله ) الجهاد من الجهد وهو المشقة والتعب ، وسبيل الله هى طريق الحق والخير والفضيلة ، وكل جهد فى الدفاع عن هذه ، وحمل للناس عليها فهو جهاد فى سبيل الله .

أى جاهدوا أنفسكم بكفها عن أهوائها ، وحملها على النصفة والمدل فى جميع الأحوال ، وجاهدوا أعدائى وأعداءكم . وأتعبوا أنفسكم فى قتالهم ومنعهم من مقاومة الدعوة .

(لعلكم تفلحون) أى افعلوا كل هذا ترجاء الفوز والفلاح والسعادة فى المعاش والمعاد والخلود فى جنات النعيم .

و بعد فلم يؤثر عن صحابى ولا تابعى ولا أحد من علماء السلف أن الوسيلة هى التقرب إلى الله تعالى بغير ما شرعه الله للناس من الإيمان والعمل كالدعاء ونحوه .  
ولكن جد فى القرون الوسطى التوسل بأشخاص الأنبياء والصالحين أى جعلهم وسائل إلى الله تعالى والإقسام بهم على الله ، وطلب قضاء الحاجات ودفع الضرر وجلب النفع منهم عند قبورهم أو بعيدا عنها ، وكثر هذا حتى أصبح الناس يدعون مع الله أصحاب القبور فى الحاجات أو يدعونهم من دون الله وألف بعض الناس كتباً فى هذا وزعم أنهم يسمعون ويستجيبون للداعى ، وشغف العامة بمثل هذا القول المخالف لقول الله تعالى : « فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » وقوله : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ » وقوله : « وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ . إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ . وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

والذى عليه الممول فى ذلك أن لفظ التوسل يراد به أحد معان ثلاثة :

(١) التوسل إلى الله بطاعته والتشرب إليه بفعل ما يرضيه ، وهذا فرض حتمى وبه جاءت الشرائع وهو أس كل دين .

(٢) التوسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم بدعائه وشفاعته كما كان الصحابة يفعلون ، وهذا كان فى حال حياته ولهذا قال عمر بن الخطاب : « اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا » أى بدعائه وشفاعته ، ويوم القيامة يتوسل المؤمنون بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته .

(٣) التوسل بالله بمعنى الإقسام بذاته وهذا لم تكن الصحابة تفعله فى الاستسقاء ونحوه لافى حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولا بعد مماته لا عند قبره ولا بعيدا عنه

ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية الماثورة عندهم ، وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة أو عن ليس قوله حجة ، وقد قال أبو حنيفة وأصحابه : إن مثل هذا لا يجوز وقالوا لا يسأل بمخلوق ولا يقول أحد أسألك بحق أنبيائك ، ولا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به ، وكرهوا أن يقال بمعاقدة العزم من عرشك أو بحق خلقك لأنه لاحق للخلق على الخالق .

والخلاصة — أن الوسيلة ما تقرب به إلى الله وترجو أن تصل به إلى مرضاته بما شرعه لتزكية نفسك ، وقد دل كتاب الله في جلته وتفصيله على أن مدار النجاة والفلاح هو الإيمان والعمل الصالح كما قال تعالى : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى . ثُمَّ يُجْرَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى » وقال : « لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَى » وقال : « هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

نعم دلت السنة على أن دعاء المؤمن لغيره قد ينفعه ، وثبت أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان حريصا على إيمان عمه أبي طالب فأُنزل الله عليه « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » .

والخلاصة — أن العمدة في تقرب الإنسان إلى الله وابتغاء مرضاته هو إيمانه وعمله لنفسه ، فإذا لم يعمل لنفسه ما شرعه الله وجعله سبب فلاحه ، فهل يكون قد ابتغى إليه الوسيلة بطلب الدعاء من بعض عباده المكرمين أو طلبه منهم بعد موتهم أن يشفعوا له أي يدعوا له .

كلا إن الطلب من الميت غير مشروع فضلا عن أنه لا يعلم إن كان مقبولا أو غير مقبول ، فإن ذلك من أمور الآخرة « وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » .

وما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك كله ضعيف بل موضوع ، وحديث الأعمى الذي علمه أن يقول : « أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة » لا يصلح حجة في هذا الباب ، لأنه إنما توسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته وقد أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول : « اللهم

شفعه في » وقد زد الله عليه بضره حين دعا له النبي صلى الله عليه وسلم وكان ذلك من معجزاته صلى الله عليه وسلم .

والحلف بالخلوقات حرام عند أبي حنيفة والشافعي ، وحكى إجماع الصحابة على ذلك حتى قال عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر : لأن أحلف بالله كاذبا أحب إليّ من أن أحلف بغير الله صادقا ، وقد جاء في الصحيحين أنه قال : « من كان حائفا فليحلف بالله » وقال : « لا تحلفوا بآبائكم فإن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم » .

والحلف بالأنبياء ليس يمين عند مالك وأبي حنيفة والشافعي فلا كفارة فيه ، وكذلك الحلف بالخلوقات المحترمة كالعرش والكرسي والكمبة والمسجد الحرام والمسجد الأقصى . ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم والملائكة والصالحين والملوك وسيوف المجاهدين وترب الأنبياء والصالحين .

( إن الذين كفروا لو أن لهم مافي الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم ) أي إن الذين جحدوا ربوبية ربهم وعبدوا غيره من نحل أو صنم أو وثن وهلكوا وهم على هذه الحال قبل التوبة لو أن لهم ملك مافي الأرض كلها وضعفه معه ليفتدوا به من عقاب الله إياهم على تركهم أمره وعبادتهم غيره ؛ فافتدوا بذلك كله يوم القيامة ما تقبل الله منهم ذلك فداء وعوضا من عذابهم وعقابهم ، بل هو معذبهم عذابا موجعا مؤلما لهم ، لأن سنته تعالى قد مضت بأن سبب الفلاح والنجاة إنما يكون من نفس الإنسان لا من خارج عنها « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

وهذا هو الفارق بين الإسلام وغيره من الأديان فالنصارى يعتقدون أن خلاصهم وسعادتهم يكون بالمسيح فدية لهم يفندونهم بنفسه مهما كانت حالهم ، والمسلمون يعتقدون أن العدة في النجاة تركية النفس بالفضائل والأعمال الصالحة .

وهذه الجملة جاءت مؤكدة لبيان أن أساس الفوز في الآخرة تقوى الله والتوسل إليه بالإيمان والعمل الصالح والجهاد في سبيله .

( يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها وهم عذاب مقيم ) المقيم هو الثابت الذى لا يتحل أبداً ، أى يتمنون الخروج من النار دار العذاب والشقاء بعد دخولهم فيها وما هم بخارجين منها البتة ، ثم أكد ذلك بإثبات العذاب المقيم لهم فيها .

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)

### المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه عقاب الخاطئين الذين يفسدون فى الأرض ويأكلون أموال الناس بالباطل جهرة ، وأمر بتقوى الله وابتغاء الوسيلة والجهاد فى سبيله ، وهى الأعمال التى يكمل بها الإيمان وتتهذب بها النفوس حتى تنفر من الحرام وتبتعد عن المعاصى .

ذكر هنا عقاب اللصوص الذين يأكلونها كذلك خفية ، وجمع فى هذه الآيات بين الوازع الداخلى وهو الإيمان والصلاح والوازع الخارجى وهو الخوف من العقاب والنكال .

### الإيضاح

( والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ) أى ومن سرق من رجل أو امرأة فاقطعوا يا ولاية الأمور والقضاة والحكام يده من الكف إلى الرسغ ، لأن البرقة

تحصل بالكف مباشرة والساعد والعضد يحملان الكف كما يحملهما معهما البدن ،  
والتي تقطع أولا هي اليمنى لأن التناول غالبا يكون بها .

وقد اختلف الأئمة في المقدار الذي يوجب قطع اليد في السرقة ، فروى عن  
الحسن البصرى وداود الظاهرى أنه يثبت القطع بالقليل والكثير لظاهر الآية  
وللحديث « لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الجمل فتقطع يده »  
رواه الشيخان عن أبي هريرة ، وجهور العلماء من السلف والخلف على أن القطع  
لا يكون إلا في سرقة ربع دينار « ربع مثقال من الذهب » أو ثلاثة دراهم من  
الفضة لحديث عائشة : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع يد السارق في ربع  
دينار فصاعدا » رواه أحمد والشيخان وأصحاب السنن ، وللحديث ابن عمر  
في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قطع في مِخْنٍ ( تَرَس ) ثمنه ثلاثة دراهم .  
ويرى الحنفية أن القطع لا يكون إلا في عشرة دراهم فأكثر لا مادونها ، ولا بد أن  
يكون المال محفوظا في حرز وإلا فلا قطع .

وتثبت السرقة بالإقرار أو البينة ، ويسقط الحد بالعفو عن السارق قبل رفع أمره  
إلى الإمام .

( جزاء بما كسبنا نكالا من الله ) النكال من النكل ( بالكسر ) وهو قيد  
الدابة ، فالنكال ما ينكل الناس ويمنعهم أن يسرقوا .  
أى اقطعوا أيديهما جزاء لما بعملهما وكسبهما السوء ونكالا وعبرة لغيرهما ،  
ولا عبرة أعظم من قطع اليد الذي يفضح صاحبه طول حياته ويسميه بيمس العار  
والخزى ، ولا شك أن هذه العقوبة أجدر بمنع السرقة وتأمين الناس على أموالهم  
وأرواحهم ، فالأرواح كثيرا ما ترهق إذا قاوم أهلها السراق وحاولوا منعهم من  
أخذ الأموال .

( والله عزيز حكيم ) أى عزيز فى انتقامه من هذا السارق والسارقة وغيرها  
من أهل المعاصى ، حكيم فى صنعه فهو يوضع الحدود والعقوبات على حسب الحكمة

التي توافق المصلحة ، فما أمر الله بأمر إلا وهو صلاح ولا نهى عن أمر إلا وهو فساد  
وكأنه يقول : اشتدوا على السراق فاقطعوا يدا يدا ورجلا رجلا .

( فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم )  
أى فمن تاب من السراق ورجع عن السرقة بعد ظلمه لنفسه بعمله ما نهى الله عنه من  
سرقة أموال الناس وأصلح نفسه وزكاها بأعمال البر فإن الله يقبل توبته ويرجع  
إليه بالرضا ويغفر له ويرحمه .

ولا يسقط الحد عن التائب ولا تصح التوبة إلا بإعادة المال المسروق بعينه  
إن كان باقيا وإلا فدفعت قيمته إن قدر .

( ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء  
والله على كل شيء قدير ) أى ألم تعلم أيها الرسول أن الله له ملك السموات والأرض  
يدبر الأمر فيهما بحكمته وعدله ورحمته وفضله ، ومن حكمته أن وضع هذا العقاب  
لكل من يسرق ما يعد به سارقا كما وضع العقاب للمحاربين المفسدين في الأرض ،  
ويغفر لمن تاب من هؤلاء وهؤلاء ويرحمه إذا صدق في التوبة وأصلحا عملهما  
ويعذب من يشاء تعذيبه من العصاة تربية له وتأمينا لعباده من أذاه وشره ، كما يرحم  
من يشاء من التائبين برحمته وفضله ، ترغيبا لهم في تزكية أنفسهم ، وهو القادر على  
كل شيء من التعذيب والرحمة لا يعجزه شيء في تدبير ملكه .

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ  
قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ  
لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ، يُحْزِنُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ  
مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِينَا هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ فَاحْذَرُوا ، وَمَنْ  
يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ

يُطَهَّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ، وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١)  
 سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ  
 أَعْرِضْ عَنْهُمْ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ  
 فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحْكِمُ اللَّهُ  
 حُكْمَهُ فِيهَا تَوَرَّاتُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ مُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ  
 بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣).

### شرح المفردات

الحزن : ألم يجده الإنسان عند فوت ما يحب ، وسارع إلى الشيء : إذا أسرع إليه  
 من خارج ليصل إليه ، وأسرع فيه : إذا أسرع في أعماله وهو داخل فيه ، وهنا كان  
 الكفار داخلين في ظرف الكفر وهو محيط بهم سرادقه، والفتنة : الاختبار كما يفتن  
 الذهب بالنار فيظهر مقدار ما فيه من العش والزغل ، والسحت : ما خبث من المكاسب  
 وحرّم فلزم عنه العار وقبح الذكر كثمن الكلب والخنزير والحمر والرشوة في الحكم ،  
 والقسط : العدل .

### المعنى الجملي

أخرج أحمد ومسلم وأبو داود وابن جرير وابن المنذر عن البراء بن عازب قال :  
 «مر النبي صلى الله عليه وسلم بيهودي محمداً<sup>(١)</sup> مجلوداً ، فدعاهم فقال : أهكذا تجدون  
 حد الزاني في كتابكم ؟ قالوا : نعم فدعا رجلاً من علمائهم فقال : أشدك بالله الذي  
 أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ قال : اللهم لا ، ولولا

(١) التعميم : وضع الحمة أي الفحمة في الوجه ، وهو كالتسخيم الذي جاء في الرواية الأخرى ،  
 من السخام : وهو سواد القدر .

أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، نجد حد الزانى فى كتابنا الرجم ، ولكنه كثير فى أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد فقلنا تعالوا فلنجتمع على شىء نقيمه على الشريف والضعيف ، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه وأمر به فرجم فأنزل الله (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر - إلى قوله (إن أوتيتم هذا فخذوه) .

وأخرج أحمد والبخارى ومسلم عن ابن عمر قال : « إن اليهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم برجل منهم وامرأة قد زنيا فقال : ما تجدون فى كتابكم ؟ قالوا نسخيم وجوههما ويخزيان ، قال : كذبتن إن فيها الرجم (فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ) فجاءوا بالتوراة وجاءوا بقارى لهم أعور يقال له ابن صوريا فقرأ حتى إذا أتى إلى موضع منها وضع يده عليه ، فقيل له : ارفع يدك فرفع يده فإذا هى تلوح (أى آية الرجم) فقالوا : يا محمد إن فيها الرجم ولكننا كنا نكاتبه بيننا ، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما فلقد يحا عليها (بينحنى) يقبها الحجارة بنفسه .

### الإيضاح

(يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر) خاطب الله محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله يا أيها النبي فى مواضع كثيرة وما خاطبه بيا أيها الرسول إلا فى هذا الموضع وموضع آخر بعده « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك » وهذا الخطاب للتشريف والتعظيم وتأديب المؤمنين وتعليمهم أن يخاطبوه بوصفه كما كان يفعل بعض أصحابه بقولهم (يا رسول الله) وجهل هذا بعض الأعراب لخشوتهم ومداحة فطرتهم فكانوا ينادونه (يا محمد) حتى أنزل الله « لا تجملوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً » فكفوا عن نداءه باسمه .

أى لا تهتم أيها الرسول بهؤلاء المنافقين الذين يسارعون في إظهار الكفر والتحيز إلى أعدائه المؤمنين عند ما يرون الفرصة سانحة ، فالله يكفيك شرهم وبيتيك شرهم وينصرك عليهم وعلى من شايعهم وناصرهم .  
والنهي عن الحزن وهو أمر طبعي وليس للإنسان اختيار فيه يراد به النهي عن لوازمه التي يفعلها الناس مختارين من تذكر المصائب وتعتظم شأنها ، وبذا يتجدد الألم ويبعد أمد السأوى .

ثم بين أوثك المسارعين في الكفر من المنافقين فقال :

( من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ) أى لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من المنافقين الذين ادعوا الإيمان بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم .  
( ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ) الذين هادوا هم اليهود ، والمراد بالسماع سماع القبول والاعتقاد بوضحة ما يقال ، والمراد بالكذب ما يقوله رؤسائهم في النبي صلى الله عليه وسلم وفي أحكام دينهم التي يتلاعبون فيها بأهوائهم .

أى إن هؤلاء القوم كثيرو الاستماع لكلام الرسول صلوات الله عليه والإخبار عنه لأجل الكذب عليه بالتحريف واستنباط الشبهات ، فهم جواسيس بين المسلمين لأعدائهم ، يبلغون الرؤساء أعداء الإسلام كل ما يفتنون عليه ليكون ما يفتنون عليه من الكذب متقبلا لأنه مبنى على وقائع معينة ، يزيدون في روايتها وينقصون ، ويحرفون منها ما يحرفون ؛ وقد جرت العادة بأن الكذب لا يجده تفوقا بين الناس إلا ممن يشاهد ويرى ، أما البعيد فيظهر اختلاق كذبه سريرا ، ولهذا كانوا ينقلون تلك الأكاذيب لمن لم يأت النبي صلى الله عليه وسلم من الرؤساء وذوى الكيد ليسمعوا منه بأذانهم إما كبيرا وتمردا وإما خوفا على أنفسهم وهذا معنى قوله : سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، أى سماعون لأجلهم .

( يحرفون الكلم من بعد مواضعه ) أى يحرفون كلم التوراة من بعد وضعه

في مواضعه إما تحريفاً لفظياً بإبدال كلمة بكلمة أو بإخفائه وكتمانه أو بالزيادة فيه أو بالنقص منه ، وإما تحريفاً معنوياً بحمل اللفظ على غير ما وضع له .

( يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ) : أي يقولون لمن أرسلوهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليسألوه عن حكم الرجل والمرأة اللذين زنيا منهم وأرادوا أن يجابوها بدم رجهما ، إن أعطاكم محمد رخصة بالجلد عوضاً عن الرجم فخذوها وارضوا بها ، وإن حكم بالرجم فاحذروا قبول ذلك ولا ترضوا به .

وقد سبق أن ذكرنا أنهم جاءوه فسألهم عن حد الزناة في التوراة ، فقالوا : نفضحهم ويجلدون وجاءوا بالتوراة فوضع أحدهم يده على آية الرجم وقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام ارفع يدك فرفعها فإذا هي آية الرجم ، فاعترفوا بصدق النبي صلى الله عليه وسلم وظهر كذبهم وعشيم بشرعتهم وكتابهم .

( ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ) أي ومن يرد الله أن يُختبر في دينه فيظهر الاختبار كفره وضلاله فلن تملك له أيها الرسول من الله شيئاً من الهداية والرشد ، فهؤلاء المنافقون والجاحدون من اليهود قد أظهرت لك فتنة الله واختباره إياهم مقدار فسادهم ، فهم يقبلون الكذب دون الحق وهم محرفون كاتمون لأحكام كتابهم اتباعاً لأهوائهم ومرضاة لرؤسائهم وذوى الجاه فيهم .

فلا تحزن بعد هذا على مسارعتهم في الكفر ولا تطمع في جذبهم إلى الإيمان ، فإنك لا تملك لأحد نفعا ، وإنما عليك البلاغ والبيان ، ولا تخف عاقبة نقابهم فإنما العاقبة للمتقين من أهل الإيمان ، ولهم الخزي والهوان .

( أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ) أي إن أولئك الذين بلغت منهم الفتنة ذلك المبلغ هم الذين لم يرد الله تطهير قلوبهم من الكفر والنفاق ، لأن إرادته إنما تتعلق بما اقتضته سننه العادلة في نفوس البشر ، من أنها إذا دأبت على الباطل ومرنت على الكيد والشر وألفت الخلاف والضر تحييط بها خطيئتها وتنطبق عليها

ظلمتها فلا يبقى لديها نور الحق منقذ ، وتصبح غير قابلة للاستبصار والاعتبار الذي جعله الله وسيلة للاتعاظ والهداية ، فهؤلاء الرؤساء من اليهود وأعدائهم لا تقبل طباعهم سواها فلا تتعلق إرادته سبحانه بتطهيرهم وإلا كان ذلك خلافا لما اقتضته سنته ، وتبيديلا لنظمه في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبيديلا .

( لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ) فخرى المناقين في الدنيا هتك أستارهم باطلاع الرسول على كذبهم وخوفهم من القتل ، وخزي اليهود فضيحتهم بظهور كذبهم في كتان نصوص كتابهم في إيجاب الرجم وعلو الحق على باطلهم ، وقد صدق الوعيد على كل يهود الحجاز ، كما يصدق على من ييطنون الكفر والنفاق في كل زمان ، وعذابهم في الآخرة نجزم بحصوله ، ولا نعلم مقدار كنهه وحقيقه أمره .

( سماعون للكذب أكلون للسحت ) أعاد الله وصفهم بكثرة السماع للكذب للتأكيد وتقرير المعنى وإفادة اهتمام المتكلم بأمره وبيان أن أمرهم كله مبنى على الكذب الذي هو شر الرذائل وأضر المفاسد، وهكذا شأن الأمم الذليلة تلوذ بالكذب وتندأ به عن نفسها ما تتوقع من ضرر ربما يلحقها .

وكذلك انتشر بين أفرادها أكل السحت لأنها كانت تعيش بالحباية والرشا في الأحكام فسدت بينها أمور المعاملات واستبدلت الطمع بالعفة كذلك، وكان أخبار اليهود ورؤسائهم عصر التنزيل كذابين أكالين للسحت من رشوة وغيرها من الدنئات كما هو دأب سائر الأمم عهد فسادها وأزمان انحطاطها .

( فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ) أى فإن جاءوك متحاكين إليك فأنت مخير بين الحكم بينهم والإعراض عنهم وتركهم إلى رؤسائهم ، وهذا التخير خاص بالمعاهدين دون أهل الذمة ، فلا يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين الأجانب الذين هم في بلادهم وإن تحاكموا إليهم ، بل هم مخيرون يرجحون في كل حال ما يرونه من المصلحة .

وأما أهل الذمة فيجب الحكم بينهم إذا تحا كوا إلينا ، لأن من أخذت منه الجزية تجرى عليه أحكام الإسلام في البيوع والموارث وسائر العقود إلا في بيع الحر والخنزير فإنهم يقرن عليه ويمنعون من الزنا كالمسلمين فإنهم نهاوا عنه ولا يرجون ، إذ من شروط الرجم الإسلام .

( وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا ) أى وإن اخترت الإعراض عنهم ولم تحم بينهم فلن يضروك شيئا من الضرر فالله حافظك من ضرهم .  
( وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ) أى وإن اخترت أن تحم بينهم فاحكم بالعدل الذى أمرت به وهو ما تضمنه القرآن واشتملت عليه شريعة الإسلام .

( وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ) أى وكيف يحكمونك فى قضية كقضية الزانيين وعندهم التوراة وهى شريعتهم فيها حكم الله فيما يحكمونك فيه ثم يتولون عن حكمك بعد أن رضوا به وآثروه على شريعتهم لموافقتة إياها .

وخلاصة ذلك — أن أمرهم من أعجب العجب ، وما سبب إلا أنهم ليسوا مؤمنين بالتوراة إيماناً صحيحاً ولا هم مؤمنون بك إذا المؤمن بشرع لا يرغب عنه إلى غيره إلا إذا آمن بأن ما يرغب إليه شرع من الله أيضاً أيد به الأول أو نسخته لحكمة اقتضت ذلك .

ولسكن هؤلاء تركوا حكم التوراة التى يدعون الإيمان بها لأنه لم يوافق أهواءهم وجاءوك يطلبون حكمك رجاء أن يوافق أهواءهم ثم يتولون ويعرضون عنه إذا لم يأت على وفق مرادهم .

وقد جاء فى سفر التثنية بعد بيان أن من تزوج عذراء فوجدها ثيباً ترجم عند باب بيت أبيها ، وإذا وجد رجل مضطجع مع امرأة زوج بعل يقتل الاثنان الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة فنزع الشر من إسرائيل ، وإذا كانت فتاة عذراء مخطوبة

رجل فوجدها رجل في المدينة فاضطجع معها فأخرجوها كليهما إلى باب المدينة وارجموها بالحجارة حتى يموتا ، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة والرجل من أجل أنه أدخل امرأة صاحبه فتنزع الشر من وسطك .

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا  
لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا  
عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَحْشَوْا النَّاسَ وَاحْشَوْا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ،  
وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ  
فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذْنَ بِالْأُذُنِ  
وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرْمَ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ،  
وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ  
بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ  
فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً  
لِلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ  
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) .

### تفسير المفردات

التوراة : الكتاب الذي أنزل على موسى ، والذين هادوا : هم اليهود ، والرَّبَّانِيُونَ : هم المنسوبون إلى الرب بمعنى الخالق المدبر لأمر الملك ، والأحبار : واحدهم حَبْرٌ وهو العالم ، وبما استُحْفِظُوا من كتاب الله أي بما طلب إليهم حفظه منه ، وشهداء

أى رقباء على الكتاب وعلى من يريد العبث به ، قناه به تقية : جعله يقفو أثره كما قال : « وَقَفَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّشْلِ » والفاشقون أى الخارجون من حظيرة الدين المتجاوزون لأحكامه وآدابه .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه عجيب حال اليهود من تركهم حكم التوراة وهم يعلمونه ، وطلبهم من النبي صلى الله عليه وسلم الحكم بينهم ورضاهم به إذا وافق أهواءهم وتركهم له إذا جاء على غير ما يريدون .

ذكر هنا أمر التوراة وأنها أنزلت هداية لبنى إسرائيل ثم أعرضوا عن العمل بها لما عرض لهم من الفساد ، وفى ذلك من العبرة أن الانتماء إلى الدين لا ينفع أهله إذا لم يقيموه ويهتدوا بهديه وأن إشار أهل الكتاب أهواءهم على هدى دينهم هو الذى عمدهم عن نور القرآن والاهتداء به .

### الإيضاح

( إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ) أى إنا أنزلنا التوراة على موسى مشتملة على هدى وإرشاد للناس إلى الحق ونور وضياء يكشف به ما تشابه عليهم وأظلم ، وبهذا الهدى أخرج بنى إسرائيل من وثنية المصريين وضلالهم ، وبذلك النور أبصروا طريق الاستقلال فى أمر دينهم ودينهم .

( يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ) أى أنزلناها قانونا يحكم به النبيون الذين أسلموا وجوههم لله مخلصين له الدين - موسى ومن بعده من أنبياء بنى إسرائيل إلى عيسى عليه السلام ، للذين هادوا أى لليهود خاصة ، لأنها شريعة خاصة بهم لا عامة ، ولم يكن لداود وسليمان وعيسى شريعة دونها .

( والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ) أى ويحكم بها الربانيون

والأخبار في الأزمنة التي لم يكن فيها أنبياء معهم أو يحكمون مع وجودهم بإذنتهم بسبب ما أودعوه من الكتاب وأتمنوا عليه وطلب منهم أن يباؤهم حفظه ، كالعهد الذي أخذه موسى بأمر الله على شيوخ بني إسرائيل بعد أن كتب التوراة أن يحفظوها ولا يحدوا عنها . ويروى عن أمير المؤمنين على كرم الله وجهه أنه قال : أنا رباني هذه الأمة ، وأطلق لقب حبر الأمة في الإسلام على ابن عباس رضى الله عنهما ، وأطلق لقب الرباني على علي المرتضى عليه الرحمة .

وقال ابن جرير الربانيون جمع رباني وهم العلماء الحكماء البصراء بسياسة الناس وتدبير أمورهم والقيام بمصالحهم ، والأخبار جمع حبر وهو العالم الحكيم للشيء اه . ( وكانوا عليه شهداء ) أى وكان السلف الصالح منهم رقباء على الكتاب وعلى من تحدثه نفسه للعبث به كما فعل عبد الله بن سلام في مسألة الرجم ، لا كما فعل الخلف من الكتاب بعض أحكامه اتباعا للهوى أو خوفا من أشرفهم إن أقاموا عليهم حدوده أو طمعا في صلاتهم إذا هم حاجوهم .

وما كتبه صفة النبي صلى الله عليه وسلم والبشارة به . ثم خاطب الله تعالى رؤساء اليهود الذين كانوا زمن التنزيل لا يخافون الله في الكتاب والتبديل بعد أن قص سيرة السلف الصالح من بني إسرائيل لعلمهم يعتبرون ويعرون عن غيهم فقال :

( فلا تخشوا الناس واخشون ) أى إذا كان الحال كما ذكر أيها الأخبار ولا شك أنكم لا تتكرونه كما تتكرون غيره مما قصه الله على رسوله من سيرة أسلافكم - فلا تخشوا الناس فتكتموا ما عندكم من الكتاب خشية أحد أو طمعا في منفعة عاجلة منه ، واخشوني وافعلوا بمن كان قبلكم من الربانيين والأخبار واحفظوا التوراة ولا تعدلوا عن ذلك فإن النفع والضرر بيدي .

( ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ) أى ولا تتركوا بيانها للناس والعمل بها لقاء منفعة دنيوية قليلة تأخذونها من الناس كرشوة أو جاه أو غيرها من الحظوظ العاجلة

التي تصدكم عن الاهتداء بآيات الله وتمنعكم عن الخير العظيم الذي تناولونه من ربكم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

( ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ) أى وكل من رغب عن الحكم بما أنزل الله وأخفاه وحكم بغيره كحكم اليهود فى الزانيين المحصنين بالتحميم وكتمانهم الرجم وقضائهم فى بعض قتلاهم بدية كاملة وفى بعضها بنصف الدية ، والله قد سوى بين الجميع فى الحكم - فأولئك هم الكافرون الذين ستروا الحق الذى كان عليهم كشفه وتبيينه وغطوه وأظهروا لهم غيره وقضوا به .

قال الرازى نقلا عن عكرمة : إن الحكم بالكفر على من حكم بغير ما أنزل الله - إنما يكون فيمن أنكر بقلبه وحجده بلسانه ، أما من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه كونه حكم الله إلا أنه أتى بما يضاده فهو حاكم بما أنزل الله ولكنه تارك له فلا يدخل تحت هذه الآية .

وأخرج ابن جرير عن أبي صالح قال : الثلاث الآيات التى فى المائدة ومن لم يحكم بما أنزل الله الخ ليس فى الإسلام منها شيء فى الكفار ، وعن الشعبي أنه قال : الثلاث الآيات التى فى المائدة أولها فى هذه الأمة والثانية فى اليهود والثالثة فى النصارى . وخلاصة المعنى - ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهينا به منكرا له كان كافرا لاجوده به واستخفافه بأمره .

( وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ) أى إن الجروح ذوات قصاص يعتبر فى جزائها المساواة بقدر الاستطاعة .

وقد جاء فى التوراة فى الفصل الحادى والعشرين من سفر الخروج ( وإن حصلت أذية تعطى نفسا بنفس وعينا بعين وسنا بسن ويذا بيد ورجلا برجل وكيا بكى وجرحا بجرح ورضا برضا ) .

وجاء فى الفصل الرابع والعشرين من سفر اللاويين ( وإذا أمات أحد إنسانا

أنه يقتل ، ومن أمات بهيمة يعوض عنها نفسا بنفس وإذا أحدث إنسان في قريبه عيبا فسكنا فعل كذلك يفعل به ، كسر بكسر وعين بعين وسن بسن ، كما أحدث عيبا في الإنسان كذلك يحدث فيه ) .

( فمن تصدق به فهو كفارة له ) أي فمن تصدق بما ثبت له من حق التصاص وعفا عن الجاني فهذا التصدق كفارة له ، يكفر الله بها ذنوبه ويعفو عنه كما عفا عن أخيه .

وهذا كقوله تعالى « وَأَنْ تَعْقُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » وروى عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من تصدق من جسده بشيء كفر الله تعالى عنه بقدره من ذنوبه ، ويقرب منه قوله صلى الله عليه وسلم « أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم؟ كان إذا خرج من بيته تصدق بعرضه على الناس » .

( ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ) أي إن كل من أعرض عما أنزل الله من التصاص المبني على قاعدة العدل والمساواة بين الناس وحكم بغيره فهو من الظالمين ، إذ العدول عن ذلك لا يكون إلا بتفضيل أحد الخصمين على الآخر وغصص حق المفضل عليه وظلمه .

( وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة ) أي وبعثنا عيسى بن مريم بعد هؤلاء النبيين الذين كانوا يحكمون بالتوراة متبعما طريقهم جاريا على هديهم مصدقا للتوراة التي تقدمته بقوله وعمله ، فشرية عيسى عليه السلام هي التوراة ، وقد نقلوا عنه في أناجيلهم أنه قال : ما جئت لأتقض الناموس ( شريعة التوراة ) وإنما جئت لأتمم - أي لأزيد عليها ما شاء الله أن أزيد من الأحكام واللواظ ، ولكن النصارى نسحوها وتركوا العمل بها اتباعا لبولس .

( وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ) أي وأعطينا الإنجيل حال كونه مشتقلا على الهدى ومنقذا من

الضلال فى العقائء والأعمال كالتوحد والتنزله النافى للوثنة الة هى مصدر الخرافات والأباطل .

وعلى النور الذى يبصر به طالب الحق طرله الموصل إله ، وهو مصءق للتورة الة تقدمته أى إنه مشمل على النص بتصدلقها زبأة على تصءق المسلح لها بقوله وعمله .

وقء وصف القرآن الإنجل بمثل ما وصف به التورة وبكونه مصءقا لها وجمله هءى وموعظة للمتقن ، لأنهم هم الذى ينتفعون بهءاء لحرصهم علىه وعنايتهم به . والسرف فى ذلك أن فىه أسرار الشرعة وبلان حكمتها والمقصء منها ومعرفة أن بعد هءه التورة وهءا الإنجل هءاية أعم وأشمل وهى الة لى بىء بها النبى الأخر ( البارقلىط ) الأعظم .

( وللحك أهل الإنجل بما أنزل الله فىه ) أى وقلنا لهم لىحك أهل الإنجل بما أنزل الله فىه من الأحكام ، والمراد وأمرناهم بالعمل به ، فهو كقوله فى أهل التورة « وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا » .

وخلاصة ذلك — زجرهم عن تحرف مافى الإنجل وتفسره مثل ما فعل اليهود من إخفاء أحكام التورة .

( ومن لم لىحك بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ) أى المءردون الخارجون عن حكمه .

والآية ءءل على أن الإنجل مشمل على أحكام وأن عيسى علىه السلام كان مسءقلا بشرع مأمورا بالعمل بما فىه من الأحكام قأت أو كءرت ، لا بما فى التورة خاصة ، ولسهد لذلك ءءء البخارى « أعطى أهل التورة التورة فعملوا بها وأهل الإنجل الإنجل فعملوا به » .

وقال الشهرسءانى فى الملل والنحل ( جمىع بنى إسرائيل كانوا مءعبءن بشرعة موسى علىه السلام مكلفن التزام أحكام التورة .

والإنجيل النازل على عيسى عليه السلام لا يحتضن أحكاما ولا يستبطن حلالا ولا حراما ولكنه رموز وأمثال ومواعظ وما سواها من الشرائع والأحكام (بحال على التوراة) .

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ  
الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ  
عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ  
لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ  
إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنْ  
أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاتَّخِذْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ  
عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ  
بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَأَحْكُمُ الْجَاهِلِيَّةِ  
يَبْغُونَ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) .

### شرح المفردات

المهيمن: على الشيء القائم على شئونه وله حق مراقبته وتبلى رعايته ، والشرعة  
والشريعة: مورد الماء من النهر ونحوه ، وكل ما شرعت فيه من شيء فهو شريعة ،  
ومن ذلك شريعة الإسلام لشرع أهلها فيها ، والمنهاج: السبيل والسنة ، والابتلاء:  
الاختبار ، استبقوا ابتدروا وسارعوا ، أن يفتنوك أى يميلوا بك من الحق إلى الباطل .

## المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه إنزال التوراة ثم الإنجيل على بنى إسرائيل وذكر ما أودعه فيهما من الهدى والنور وما أزمهم به من إقامتهما وما أوعدهم به من العقاب على ترك الحكم بهما .

ذكر هنا إنزاله القرآن على خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ومنزلته من الكتب قبله وأن الحكمة اقتضت تعدد الشرائع والمناهج لهداية البشر .

## الإيضاح

( وأُنزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ )  
أى وأُنزِلْنَا إِلَيْكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ الْكِتَابَ (القرآن الكريم) الذى أَكْمَلْنَا بِهِ الدِّينَ مَشْتَمِلًا عَلَى الْحَقِّ مَقْرَرًا لَهُ «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ» مُصَدِّقًا لِمَا تَقَدَّمَهُ مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ كَالْتُورَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، وَمُهَيْمِنًا وَشَهِيدًا عَلَيْهَا بِمَا بَيْنَهُ مِنْ حَقِيقَةِ أَمْرِهَا وَمَا كَانَ مِنْ حَالٍ مِنْ خُوطِبُوا بِهَا مِنْ نَسِيَانٍ حَظَّ عَظِيمٍ مِنْهَا وَتَحْرِيفٍ كَثِيرٍ مِمَّا بَقِيَ وَتَأْوِيلِهِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْعَمَلِ بِهِ .

روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال ( ومهيمنا عليه ) يعنى أمينا عليه يحكم على ما كان قبله من الكتب .

( فاحكم بينهم بما أنزل الله ) أى إذا كان هذا شأن القرآن ومنزلته مما قبله من الكتب الإلهية وهو أنه رقيب وشهيد عليها ، فاحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله إليك فيه من الأحكام ، دون ما أنزله إليهم إذ شربعتك ناسخة لشريعتهم .

( ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ) أى ولا تتبع ما يريدون وهو الحكم بما يسهل عليهم ويخف احتمالاه مائلا بذلك عما جاءك من الحق الذى لا شك فيه ولا ريب .

( لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ) أى لكل أمة منكم أيها الناس جعلنا شرعة أوجبنا عليهم إقامة أحكامها ، ومنهاجا وطريقا فرضنا عليهم سلوكه لتزكية أنفسهم وإصلاح سرائرهم .

من قبل أن الشرائع العملية تختلف باختلاف أحوال الاجتماع وطبائع البشر واستعداداتهم وإن اتفق الرسل جميعا في أصل الدين وهو توحيد الله والإخلاص له في السر والعلن وإسلام الوجه له .

روى عن قتادة أنه قال في تفسيرها : أى سبيلا وسنة ، والسنن مختلفة ، للشوراة شرعية وللإنجيل شرعية وللقرآن شرعية ، يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء كى يعلم من يطيعه ممن يعصيه ولكن الدين الذى لا يقبل غيره هو التوحيد والإخلاص الذى جاءت به الرسل ؛ وروى عنه أنه قال الدين واحد والشرعة مختلفة . ومن هذا يفهم أن الشرعية هى الأحكام العملية التى تختلف باختلاف الرسل وينسخ اللاحق منها السابق وأن الدين هو الأصول الثابتة التى لا تختلف باختلاف الأنبياء .

وهذا هو العرف الجارى الآن إذ يخصون الشرعية بما يتعلق بالقضاء وما يتخصص فيه إلى الحكام .

والمخالصة — أن الشرعية اسم الأحكام العملية ، وأنها أخص من كلمة ( الدين ) وتدخل في مسمى الدين من جهة أن العامل بها يدعى الله تعالى بعمله ويخضع له ويتوجه إليه مبتغيا مرضاته وثوابه بإذنه .

( ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ) أى ولو شاء تعالى أن يجعلكم أمة واحدة ذات شرعية واحدة ومنهاج واحد تسيرون عليه وتعملون به بأن يخلقكم على استعداد واحد وأخلاق واحدة وطور واحد في معيشتكم فتصالحكم شرعية واحدة في كل الأزمان فتكونون كسائر أنواع المخلوقات التى يقف استعدادها عند مستوى معين كالطير أو كالثمل — لفعل ذلك إذ هو داخل تحت قدرته تعالى لا يستعصى عليه .

(ولكن ليلوكم فيما آتاكم) أى ولكن لم يشأ ذلك ، بل شاء أن يجعلكم نوعا ذا عقل وفكر واستعداد للفهم والعلم ، يرتقى في أطوار الحياة بالتدرج ويخضع لسنة الارتقاء ، فلا تصلح له شريعة واحدة في كل أطواره وفي سائر جماعاته ؛ فكانت الشرائع في أطوار الطفولة من نوع يغلب عليه المادة ، وفي طور التمييز تغلب عليه العواطف والوجدانات النفسية ، وفي طور الرشد واستقلال العقل ختمت الشرائع والمناهج بالدين الحمدي المبني على فتح باب الاجتهاد الفكري ، وجعل أمره شورى في القضاء والسياسة وأصول الاجتماع بين أولى العلم والرأى .

وإخلاصة — إنه سبحانه عاملنا معاملة المحترم لاستعدادنا فيما آتانا من المناهج والشرائع لتظهر حكمته في تمييز نوعنا عن غيره من الأنواع التي تدب على وجه البسيطة ، بأن جمع لنا بين الحيوانية والملكية .

وإنك لو نظرت إلى سالف الشرائع ترى الشريعة اليهودية مبنية على الشدة ، وليس لأهلها فيها رأى ولا اجتهاد إذ هي نزلت تقوم ألقوا الذل والاستعباد فوجب أخذهم بالشدة والصرامة ، وترى الشريعة النصرانية تأمر أهلها بأن يسلموا أمورهم للمتغلبين عليهم من أهل السطة والحكم ويقبلوا كل ما يسامون به من ذل وخسف ويعملوا عنايتهم بالأمر الروحية وتربية الوجدانات النفسية ، وترى الديانة الإسلامية قائمة على أساس الاستقلال والعقل جامعة بين مصالح الروح والجسد « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » ولا يليق ذلك إلا بأمة بلغت سن الرشد العقلي والارتقاء الفكري ، ومن ثم كانت أحكامها الدنيوية قليلة في كتابها ، وفوض الأمر فيها إلى الاجتهاد ، إذ الراشد يفوض أمره إلى نفسه ، ومن ثم صارت صالحة لكل زمان ومكان ، إذ مدارها على الاجتهاد وطاعة أولى الأمر ، فنع الاجتهاد فيها يبطل مزيتها ويعملها لا تصلح لجميع الأزمان ولا لجميع الأمكنة ، إذ أنك تعلم أن للزمان والمكان والأحوال من التشريع ما يوافق ، انظر إلى الإمام الشافعي تجد أنه حين كان بالعراق وضع أسسا للتشريع والأحكام (المذهب القديم) فلما انتقل إلى مصر ورأى عادات

أهلها وأطوارهم غير كثيرا من تشريعه إلى ما يناسب الشعب الذي يعيش بين ظهرائته ( المذهب الجديد ) وما سر هذا إلا ما علمت من خضوع التشريع للزمان والمكان .

( فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ) أى إذا كان الأمر كما ذكر فسارعوا إلى ما هو خير لكم فى دينكم ودنياكم ، وابتدروا الخيرات وصالح الأعمال انتهازا للفرصة وإحرازا للفضل فالسابقون السابقون أولئك المقربون . وإنكم إلى الله دون غيره ترجعون جميعا فى الحياة الثانية فينبئكم عند الحساب بحقيقة ما كنتم تختلفون فيه فى الدنيا من أمور الدين ، ويجازى المحسن على قدر إحسانه والمسيء بإساءته فاجعلوا الشرائع سببا للتنافس فى الخيرات ، للإقامة الشجواء والعداوة بين الأجناس والعصبيات .

( وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ) أى إنا أنزلنا إليك الكتاب فيه حكم الله ، وأنزلنا إليك فيه : أن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم بالاستماع لهم وقبول كلامهم ولو لمصلحة فى ذلك كتأليف قلوبهم وجذبهم إلى الإسلام ، فالحق لا يوصل إليه بطريق الباطل ، واحذرهم أن يفتنوك وينزلوك عن بعض ما أنزل الله إليك لتحكم بغيره .

أخرج ابن جرير والبيهقى عن ابن عباس قال : قال كعب بن أسد وعبد الله ابن صوريا وشاس بن قيس من اليهود : اذهبوا بنا إلى محمد لعلمنا نفتنه عن دينه فأتوه فقالوا : يا محمد إنك عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم ، وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنيخاصهم إليك فتقضى لنا عليهم ونؤمن لك ونصدقك ، فأبى ذلك وأنزل الله عز وجل فيهم . ( وأن احكم بينهم بما أنزل الله - إلى قوله : لقوم يوقنون ) اه . يريد أن الحكمة فى إنزال هذه الآية إقرار النبى على ما فعل والأمر بالثبات على ما سار عليه من التزام حكم الله ، وعدم الانخداع لليهود .

( فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ) أى فإن أعرضوا عن حكمك بعد تحاكمهم إليك ، فما ذاك إلا لأن الله يريد أن يعذبهم فى الحياة الدنيا قبل الآخرة ببعض ذنوبهم ، لأن استئقالم لأحكام التوراة وتحاكمهم إليك لملك تتبع أهواءهم ، ومحاولتهم لفتنتك عن بعض ما أنزل إليك - كل هذه أمارات على فساد الأخلاق وانحلال روابط الاجتماع ولا بد أن تكون نتيجتها وقوع العذاب بهم ، وقد حل بيهود المدينة وما حولها بغدرهم ما حل ، فقد أجلي النبي صلى الله عليه وسلم بنى النضير عنها وقتل بنى قريظة .

( وإن كثيرا من الناس لفاسقون ) أى متمردون فى الكفر مصررون عليه خارجون من الحدود والشرائع التى اختارها الله لعباده .  
وفى هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم على عدم إذعانهم لما جاء به من الهدى والدين وإعراضهم عن ذلك النور الذى أنزل إليه .

( ألكم الجاهلية يبغون ؟ ) أى أينولون عن قبول حكمك بما أنزل الله فيبغون حكم الجاهلية المبني على التحيز والهوى لجانب دون آخر وترجيح القوى على الضعيف .  
روى « أن بنى النضير تحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خصومة كانت بينهم وبين بنى قريظة وطلب بعضهم من النبي صلى الله عليه وسلم أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من التفاضل وجعل دية القرظى ضعفى دية النضيرى لمكان القوة والضعف فقال عليه السلام : القتلى بواء ( سواء ) فقال بنو النضير نحن لا نرضى بذلك فنزلت الآية » .

وخلاصة ذلك - توبيخهم والتمجيب من حالهم بأنهم أهل كتاب وعلم ومع ذلك كانوا يبغون حكم الجاهلية التى هى محض الجهل وصریح الهوى .

( ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ) أى لا أحد أحسن حكما من حكم الله لقوم يوقنون بدينه ويدعون لشرعه ، لأنه حكم جامع بين منتهى العدل والحق

من الحاكم ، والقبول والإذعان من المحكوم له والمحكوم عليه ، وبهذا يحصل التفاضل بين الشرائع الإلهية والقوانين البشرية .  
 والخلاصة — إن مما ينبغي التعجب منه من أحوالهم أنهم يطلبون حكم الجاهلية الجائر ويؤثرونه على حكم الله العادل ، وفي الأول تفضيل القوى على الضعيف واستدلاله واستئصال شأفته ، وفي الثاني العدل الذي يستقيم به أمر الخلق ، وبه يستتب الأمن والرضا والطمأنينة بين الناس ويشعر كل منهم بالهدوء وراحة الضمير .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١)  
 فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ؟ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣)

### شرح المفردات

الولاية : ولاية التناصر والمخالفة على المؤمنين ، في قلوبهم مرض أى إن إيمانهم معتل غير صحيح ، الدائرة : ما يدور به الزمان من المصائب والدواهي التي تحيط بالمرء إحاطة الدائرة بما فيها ، والفتح : القضاء ، وهو يكون بفتح البلاد وبغير ذلك ، وحبطت أى بطلت أعمالهم التي كانوا يتكفونونها نفاقا كالصلاة والصيام والجهاد معكم نفسروا أجزها وثوابها .

## المعنى الجملى

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن عطية بن سعد قال: «جاء عبادة بن الصامت من بنى الخزرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن لى موالى من اليهود كثير عددهم، وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود وأتولى الله ورسوله، فقال عبد الله بن أبى: إنى رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من موالة موالى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أبى (يا أبا الحباب رأيت الذى نقتت به من ولاء يهود على عبادة فهو لك دونه) قال إذن أقبل فأنزل الله: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى . . . إلى قوله والله يعصمك من الناس» .

وروى أرباب السير: أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام: قسم صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه ولا يظاهروا عليه أحدا ولا يوالوا عليه عدوه وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم . وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة . وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يثول إليه أمره وأمر أعدائه ، ثم من هؤلاء من كان يجب ظهوره وانتصاره فى الباطن ، ومنهم من دخل معه فى الظاهر وهو مع عدوه فى الباطن ليأمن الفريقين وهؤلاء هم المنافقون .

وقد عامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره ربه به ، فصالح يهود المدينة وكتب بينه وبينهم كتاب أمن وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة - بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة - فحاربته بنو قينقاع بمد بدر وأظهروا البغى والحسد ، ثم نقض العهد بنو النضير بعد ذلك بستة أشهر ، ثم نقض بنو النضير العهد لما خرج إلى غزوة الخندق وكانوا من أشد اليهود عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقد حارب كل طائفة وأظهره الله عليها وكان نصارى العرب والروم حربا عليه كاليهود .

## الايضاح

( يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء الخ ) أى لا يوالى أفراد أو جماعات من المسلمين أولئك اليهود والنصارى المعاندين للنبي والمؤمنين ، ويعاهدونهم على التناصر من دون المؤمنين رجاء أن يحتاجوا إلى نصرهم إذا خذل المسلمون وغلبوا على أمرهم .

قال ابن جرير : إن الله تعالى نهى المؤمنين جميعا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارا وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله ، وأخبر أن من اتخذهم نصيرا وحليفا ووليا من دون الله ورسوله فهو منهم فى التحزب على الله ورسوله والمؤمنين ، وأن الله ورسوله منه بريثان . . . إلى أن قال غير أنه لا شك أن الآية نزلت فى منافق كان يوالى يهود أو نصارى جزعا على نفسه من دوائر الدهر لأن الآية التى بعد هذه تدل على ذلك اه .

( بعضهم أولياء بعض ) أى إن اليهود بعضهم أنصار بعض ، والنصارى بعضهم أنصار بعض ، وهذه العبارة كالعلة والسبب للنهى ، إذ كان اليهود قد نقضوا ما عقده الرسول معهم من العهد من غير أن يبدأهم بقتال ولا عدوان فصار الجميع حربا للرسول ومن معه من المؤمنين .

( ومن يتولهم منهم فإنه منكم ) أى ومن ينصرهم أو يستنصر بهم من دون المؤمنين وهم أعداء لكم فإنه فى الحقيقة منهم لامنكم لأنه معهم عليكم .

قال ابن جرير فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم ، فإنه لا يتولى متول أحدا إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض ، وإذا رضيه ورضى دينه فقد عادى من خالفه وسخطه وصار حكمه حكمه اه .

ومن هذا تعلم أنه إذا وقعت الموالاة والمخالفة والمناصرة بين المختلفين فى الدين

لمصالح دينوية لا تدخل في النهى الذى فى الآية ، كما إذا حالف المسلمون أمة غير مسلمة على أمة مثلها لاتفاق مصلحة المسلمين مع مصلحتها ، فمثل هذا لا يكون محظورا . ثم ذكر العلة والسبب فى الوعيد السابق قال :

( إن الله لا يهدى القوم الظالمين ) أى إن من يوالى أعداء المؤمنين وينصرهم أو يستنصر بهم فهو ظالم بوضعه الولاية فى غير موضعها ، والله لا يهديه لخير ولا يرشده إلى حق .

( فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فىهم ) أى فترى المنافقين الذين اعتل إيمانهم ولم يصل إلى مرتبة اليقين كعبد الله بن أبى وغيره من المنافقين ، يمتنون إلى اليهود بالولاء والعهود ويسارعون فى هذه السبيل التى سلكوها ، وكلما سنحت لهم الفرصة لتوثيق ولائهم وتأكيده ابتدروها ليزيد تمكنا وثباتنا .

( يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ) أى يقولون بأنستهم نحن نخشى أن تقع بنا مصيبة من مصائب الدهر فنحتاج إلى نصرتهم لنا ، فعلينا أن نتخذ لنا أيادى عندهم فى السراء نتنفع بها إذا مستنا الضراء .

وخلاصة ذلك — إنهم يخشون أن تدول الدولة لليهود أو المشركين على المؤمنين فيحل بهم العقاب ، لأنهم فى شك من نصر الله لنبيه وإظهار دينه على الدين كله ، إذ لم يوقنوا بنبوته ولا بصدقها ، وهكذا شأن المنافقين فى كل زمان ومكان ، فكثير من وزراء بعض الدول الضعيفة يتخذ له يدا عند دولة قوية يلجأ إليها إذا أصابها دائرة ، فتغلغل نفوذ هذه الدول فى أحشاء هذه الدولة وضعف استقلالها فى بلادها بعمالهم ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

( فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين ) هذا رد من الله تعالى على المنافقين عصر التنزيل وقطع لأطماعهم وبشرى للمؤمنين بحصول ما يتمنون أى فاعل الله بفضله وصدق ما وعد به رسوله يأتى بالفتح والفصل بين المؤمنين ومن يعاديهم من اليهود والنصارى ، أو بأمر من عنده فى هؤلاء

المنافقين كفضيحتهم أو الإيقاع بهم ، فيصبحوا نادمين على ما كتموه وأضمره في أنفسهم من اتخاذ الأولياء على المؤمنين ، وتوقع الدوائر عليهم .  
والفتح إما فتح مكة الذي كان به ظهور الإسلام والثقة بقوته وإنجاز الله وعده لرسوله ، وإما فتح بلاد اليهود في الحجاز كخيبر وغيرها ، والأمر إما الإيقاع باليهود وإجلاؤهم عن موطنهم وإخراجهم من حصونهم وصياصيتهم ، إما القهر والإيجاف عليهم بالخيال والركاب كبنى قريظة ، وإما إلقاء الرعب في قلوبهم حتى يعطوا بأيديهم كبنى النضير ، وإما ضرب الجزية على أهل الكتاب فينقطع أمل المنافقين ويندمون على ما كان من إصرارهم بالولاء لهم .

( ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم معكم ؟ )  
أى يقول بعض المؤمنين متعجبين من حال المنافقين إذ أقسموا بأغلاظ الأيمان لهم إنهم معكم وإنهم معاضدكم على أعدائكم اليهود ، فلما حل باليهود ما حلّ أظهروا ما كانوا يسرونه من موالاتهم ومالاتهم على المؤمنين كما قال في سورة براءة « وَيَخَافُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ » أى فهم لفرقتهم وخوفهم يظهرون الإسلام تقية .

( حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين ) أى ويقول المؤمنون حبطت أعمالهم التى كانوا يتكفونها نفاقا كالصلاة والصوم والجهاد معنا ليقنعونا بأنهم منا ، فحسروا بذلك ما كانوا يرجون لها من أجر وثواب لو صلحت حالهم وقوى إيمانهم .  
وفى هاتين الآيتين إخبار بالغيب وقد صدق الله وعده وخذل الكافرين وفضح المنافقين والعاقة للمتقين ، ولكن أئى لهم أن يعتبروا بمثل هذا؟ « وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ  
وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من يتولى الكافرين من دون الله يعد منهم ، وأن  
الذين يسارعون فيهم من مرضى القلوب مرتدون بتوليهم إياهم ، فإن أخفوا ذلك  
فاظهارهم للإيمان نفاق .

بين هنا حقيقة دعمها بخبر من الغيب يظهره الزمن المستقبل ، فالحقيقة هي أن  
المنافقين ومرضى القلوب لا غناء فيهم ولا يعتد بهم في نصر الدين وإقامة الحق ، فالله  
إنما يقيم دينه بصادق الإيمان الذين يحبهم فيزيدهم رسوخاً في الحق وقوة على إقامته ،  
ويحبونه فيؤثرون ما يحبه من إقامة الحق والعدل على سائر ما يحبون من مال ومتاع  
وأهل وولد .

وخبر الغيب أنه سيرتد بعض الذين آمنوا عن الإسلام جهراً ولا يضره ذلك  
لأن الله تعالى يسخر من ينصره ويحفظه .

### الإيضاح

( يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم  
ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون  
لومة لائم ) .

روى ابن جرير عن قتادة قال : أنزل الله هذه الآية وقد علم أنه سيرتد مرتدون  
من الناس ، فلما قبض الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ارتد عامة العرب عن الإسلام  
إلا ثلاثة مساجد - أهل المدينة وأهل مكة وأهل البحرين من عبد القيس - قال :  
المرتدون نصلى ولا نركى ، والله لا تنصب أموالنا ، فكلم أبو بكر في ذلك فقيل له :

إنهم لو قد قهوها لهذا أعطوها وزادوها فقال : لا والله ، لا أفرق بين شيء جمع الله بينه ولو منعوا عقالا مما فرض الله ورسوله لقاتلتهم عليه ، فبعث الله عصابة مع أبي بكر فقاتل على ما قاتل عليه نبي الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل وحرق بالنيران أناسا ارتدوا عن الإسلام ومنعوا الزكاة فقاتلهم حتى أقرؤا بالماعون ( الزكاة ) صغرة ( واحدهم صاغر وهو المبهين الذليل ) أقياء ( واحدهم قىء وهو الذليل الضعيف ) فأنته وفود العرب فخيرهم بين خطة مخزية أو حرب مجللية فاختراروا الخطة المخزية وكانت أهون عليهم أن يستعدوا أن قتلاهم في النار ، وأن قتل المؤمنين في الجنة ، وأن ما أصابوا من المسلمين من مال ردوه عليهم وما أصاب المسلمين لهم من مال فهو لهم حلال اه .

وعلى هذا فالقوم الذين يحبهم الله ويحبونه هم أبو بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة ، قاله قتادة والضحاك ، ورجح ابن جرير أن الآية نزلت في قوم أبي موسى الأشعري من أهل اليمن لما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية قال : - يعنى قوم أبي موسى - وإن لم يكونوا قاتلوا المرتدين مع أبي بكر لأن الله وعد بأن يأتى بخير من المرتدين بدلا منهم ولم يقل إنهم يقاتلون المرتدين ويكفى في صدق الوعد أن يقاتلوا ولو غير المرتدين .

وقد ارتد كثير من القبائل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبعده ، فقد ارتدت إحدى عشرة فرقة منها ثلاث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وهم :

(١) بنو مدلج ورئيسهم ذو الحمار وهو الأسود العنسي وكان كاهنا ، تنبأ باليمن واستولى على بلاده وأخرج عمال النبي صلى الله عليه وسلم ، فكتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل وسادات اليمن ، فأهلكه الله على يدي فيروز الديلمي بيته فقتله وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله فسر به المسلمون ، وقبض عليه السلام من الغد .

(٢) بنو حنيفة قوم مسيلة الكذاب ، وقد تنبأ مسيلة وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مسيلة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك : أما بعد

فإني قد أشركت في الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشا قوم يعتدون ، فكتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى مسيلة الكذاب ( السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ) وكان ذلك سنة عشر ، وحاربه أبو بكر ، وقتله وحشى قاتل حمزة وكان يقول : قتلت في جاهليتي خير الناس وفي إسلامي شر الناس .

(٣) بنو أسد وزعيمهم طليحة بن خويلد ، وقد تنبأ فبعث إليه أبو بكر خالد بن الوليد فاتهمزم وهرب إلى الشام ثم أسلم وحسن إسلامه .  
وارتدت سبع في عهد أبي بكر وهم :

(١) فزارة قوم عيينة بن حصن .

(٢) غطفان قوم قُرَظَة بن سلمة القشيري .

(٣) بنو سليم قوم الفجاءة بن عبدياليل .

(٤) بنو يربوع قوم مالك بن نويرة .

(٥) بعض بني تميم وزعيمته سجاح بنت المنذر الكاهنة ، وقد تنبأت وزوجت نفسها من مسيلة ولها قصص طويل في التاريخ ، وصح أنها أسلمت بعد ذلك وحسن إسلامها .  
(٦) كندة قوم الأشعث بن قيس .

(٧) بنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحظم بن زيد ، وقد كفى الله المؤمنين شرهم على يد أبي بكر رضي الله عنه ، وارتدت قبيلة واحدة في عهد عمر رضي الله عنه وهم غسان قوم جبلة بن الأيهم ، تنصر جبلة ولحق بالشام ومات مرتداً . ويروى أن عمر كتب إلى أحبار الشام لما لحق بهم كتابا جاء فيه : إن جبلة ورد إلى في سراة قومه فأسلم فأكرمه ثم سار إلى مكة فطاف فوطىء إزاره رجل من بني فزارة فلطمه جبلة فحشم أنفه وكسر ثناياه فاستعدى الفزاري على جبلة إلى فحكمت إماما بالعمو وإماما بالقصاص ، فقال : أنتقص مني وأنا ملك وهو سوقة ، فقلت شملك وإياه الإسلام ،

فما تفضله إلا بالعافية ، فسأل جبلة التأخير إلى الغد ، فلما كان من الليل ركب مع بنى  
عمه ولحق بالشام مرتدا . وروى أنه ندم على ما فعل وأنشد :

تنصرت بعد الحق عارا للظمة      ولم يك فيها لو صبرت لها ضرر  
فأدركني منها لجلاج حمية      فبعت لها العين الصحيحة بالعمور  
فيا ليت أمي لم تلدني وليتني      صبرت على القول الذي قاله عمر

وهؤلاء المرتدون لم يقائلهم أحد ، فإن أبا بكر هو الذي قاتل جهاير المرتدين  
بمن معه من المهاجرين والأنصار وقد وصف الله هؤلاء المؤمنين بست صفات .  
(١) إنه تعالى يحبهم وحبه تعالى وبغضه شأن من شأنه لا تبحث عن كنهه  
ولا عن كيفيته .

(٢) إنهم يحبون الله تعالى وحب المؤمنين لله جاء في غير موضع من القرآن  
كقوله : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ »  
وفي حديث أنس في الصحيحين « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون  
الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود  
في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار » .

(٣ ، ٤) الذلة على المؤمنين والعزة على الكافرين وهما بمعنى ما جاء في قوله  
تعالى : « أَشِدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ » .

(٥) الجهاد في سبيل الله ، وسبيل الله طريق الحق والخير الموصلة إلى مرضاته  
تعالى ، ومن أعظم الجهاد بذل النفس والمال في قتال أعداء الحق ، وهو من أكبر  
آيات المؤمنين الصادقين .

(٦) كونهم لا يخافون لومة لائم ، وفي ذلك تعريض بالمنافقين الذين يخافون  
لوم أوليائهم من اليهود لهم إذا هم قاتلوا مع المؤمنين ، إذ هم لا يرغبون في جزاء أو ثناء  
من الناس بل يعملون العمل لإحقاق الحق وإبطال الباطل .

(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) أى ذلك الذى تقدم من الصفات فضل الله يعطيه من يشاء من عباده وبه يمتازون عن غيرهم ، وهذه المشيئة وفق السنن التى أقام بها أمر النظام فى خلقه ، فجعل من الناس الكسب والعمل نفسيا كان أو بدنيا ، ومنه سبحانه آلات الكسب والقوى ما بين بدنية وعقلية حسية ومعنوية ، كما أن منه التوفيق والهداية واللفظ والمعونة .

(والله ذو الفضل العظيم) فعائنا ألا نغفل عن فضله ومنتته ، ولا عما يقتضيه ذلك من الشكر له والإنابة إليه ، والإخبات والعبادة له .

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ  
وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ  
آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) .

### المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه فى الآيات المتقدمة عن موالاته الكافرين ، أمر فى هذه الآية بموالاته من تحب موالاتهم وهم الله ورسوله والمؤمنون .

### الايضاح

(إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) أى لاولى لكم أيها المؤمنون ولا ناصر ينصركم إلا الله ورسوله والمؤمنون الصادقون الذين اتصفوا بتلك الصفات الآتية بعد . وفى هذا تعريض بمن ينصر مرضى القلوب فى توليهم الكفار من دون الله . ولما كانت كلمة (المؤمنين) تشمل كل من أسلم ولو ظاهرا بين المراد منها بقوله : (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) قال فى الأساس : العرب تسمى من آمن بالله ولم يعبد الأوثان راكعا ، وقال أبو مسلم المراد بالركوع الخضوع

أى إن المؤمنين الذين يقومون بحق الولاية والنصرة لكم هم الذين يقيمون الصلاة ويؤدونها حق الأداء باشتغالها على الآداب الظاهرة والباطنة ، ويعطون الزكاة مستحقيها وهم خاضعون لأوامر الله مع طيب نفس وهدوء بال لاخوفا ولا رياء ولا سمعة ، دون المنافقين الذين يقولون آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ويأتون بصورة الصلاة لا بروحها ومعناها المقصود منها ؛ فإذا هم قاموا إليها قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا .

( ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ) أى ومن يتولم الله بالنصرة والولاية والرسول والذين آمنوا بالسمع لولايته فهم الغالبون والله ناصرهم ، ومن يتول الله يتول الإيمان به والتوكل عليه ويتول الرسول والمؤمنين بنصرهم وشد أزرهم والاستنصار لهم دون أعدائهم فإنهم هم الغالبون ولا يقبل من يتولاهم لأنهم حزب الله .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُتُوبَهُ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمُ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَمْقُلُونَ (٥٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنبِئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكَ مَشُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضَبِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاءَوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ

قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يُنَهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٦٣) .

### شرح المفردات

نقم منه كذا: إذا أنكره عليه وعابه به بالقول أو الفعل، والثوبة: من تاب إليه إذا رجع، ويراد به الجزاء والثواب، والطاغوت: من الطغيان، وهو مجاوزة الحد المشروع وهو يشمل كل من أطاعوه في معصية الله تعالى، والسحت: الدنىء من المحرمات.

### المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من دون الله وبين العلة في ذلك فأرشد إلى أن بعضهم أولياء بعض ولا يوالى المؤمنين منهم أحد، ولا يوالىهم ممن يدعون الإيمان إلا مرضى القلوب والمنافقون الذين يتربصون بالمؤمنين الدوائر. أعاد النهى هنا عن اتخاذ الكفار عامة أولياء مع بيان الوصف الذى لأجله كان النهى، وهو إيذاؤهم للمؤمنين بجميع ضروب الإيذاء، ومقاومتهم دينهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

### الإيضاح

( يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ) أى لا تتخذوا اليهود والنصارى الذين جاءتهم الرسل والأنبياء وأنزلت عليهم الكتب من قبل بعث نبينا صلى الله عليه وسلم ومن قبل نزول كتابنا - أولياء وأنصارا حلفاء فإنهم لا يألونكم خيالا وإن أظهروا لكم

مودة وصداقة ؛ ذلك لأنهم اتخذوا هذا الدين هزوا ولعبا فكان أحدهم يظهر الإيمان للمؤمنين وهو على كفره مقيم وبعد السير من الزمن يظهر الكفر بلسانه بعد أن كان يبدى الإيمان قولاً وهو مستبطن الكفر تلاعباً بالدين واستهزاء به كما قال تعالى عنهم « وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ » .

وكذلك نهى الله عن موالاته جميع المشركين ، لأن موالاته المسلمين لهم بعد أن أظهرهم الله عليهم بفتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا - تكون قوة لهم وإقراراً على شركهم الذي جاء الإسلام لمحوه من جزيرة العرب .

وقد نهج الإسلام مع أهل الكتاب سياسة غير سياسته مع مشركي العرب فأباح أكل طعامهم ونكاح نسائهم وشرع قبول الجزية منهم وإقرارهم على دينهم . وخصهم هنا بلقب أهل الكتاب ولقب المشركين بالكفار ، وفي آيات أخرى بالمشركين والذين أشركوا لأنهم لوئنتهم عريقون في الشرك والكفر أصلاء فيه ، أما أهل الكتاب فالشرك والكفر قد عرض للكثير منهم عروضاً وليس من أصل دينهم .

( واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ) أى وخافوا الله أيها المؤمنون في موالاته هؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً حتى لا يضيع الغرض منها وتكون وهناً لكم ونصراً لهم - إن كنتم صادقي الإيمان تحفظون كرامته وتجتنبون مهاتته وتصدقون بالجزاء والوعيد على معصيته تعالى .

( وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعباً ) أى وإذا أذن مؤذنكم داعياً إلى الصلاة سخر من دعوتكم إليها من نهيتهم عن ولايتهم من أهل الكتاب والمشركين ، واتخذوها هزوا ولعباً .

( ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ) أى ذلك الفعل الذى يفعلونه وهو الهزؤ والسخرية

إنما كان لجهلهم بحقيقة الأديان وما أوجب فيها من تعظيم الله والثناء عليه بما هو أهل له ولو كان عندهم عقل لخشعت قلوبهم كلما سمعوا المؤذن يكبر الله تعالى ويمجده بصوته الندى ويدعو إلى الصلاة له والفلاح بمناجاته وذكره ، فهو ذكر مؤثر في النفوس لا تخفى محاسنه على من يعقل الحكمة في إرسال الشرائع ويؤمن بالله العلي الكبير .  
 ( قل يا أهل الكتاب هل تتقون منا إلا أن آمننا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ؟ ) أى قل يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى هل تعيبون علينا من شيء وتكفروننا لأجله ، إلا إيماننا الصادق بالله وتوحيده وإثبات صفات الكمال له ، وإيماننا بما أنزل إلينا وبما أنزل من قبل على رسله ، لقلته إنصافكم ، ولأن أكثركم فاسقون خارجون عن حظيرة الإيمان الصحيح وليس لكم من الدين إلا العصبية الجنسية والتقاليد الباطلة .

والخلاصة — إنه ما عندنا سوى ذلك ، وهذا مما لا يعاب ولا ينقم ، بل يمدح صاحبه ويكرم ، لكنكم لنفسكم وخروجكم من حظيرة الدين الصحيح عثم الحسن من غيركم ورضيتم بالقبيح من أنفسكم .

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من اليهود أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبي رافع في جماعة فسألوه عن يؤمن به من الرسل ؟ فقال : ( أومن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ) فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا لا تؤمن بمن آمن به فأنزل الله فيهم ( قل يا أهل الكتاب ... الخ ) » .

وفى قوله : ( وأن أكثركم فاسقون ) دقة في الأحكام على الأمم والشعوب ، إذ هو يحكم على الكثير أو الأكثر وما عمم إلا استثنى وقد كان في أهل الكتاب ناس لا يزالون معتصمين بأصول الدين وجوهره من التوحيد وحب الحق والعدل وهؤلاء هم الذين سارعوا إلى الإسلام عند ما عرفوا حقيقة أمره وتجلي لهم صدق الداعى إليه

(قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله) استعمال المثوبة في الجزء الحسن أكثر من استعمالها في الجزء السيء ، وقيل إن استعمالها في الجزء السيء من باب التهكم والازدراء .

أى هل أنبئكم أيها المستهزئون بديننا وأذانتنا بما هو شر من عملكم هذا جزاء وثوابا عند الله .

وهذا السؤال يستدعى سؤالاً منهم عن ذلك الذى هو شر (ما هو) فأجابهم بقوله ( من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ) من لعنه الله أى جزاء من لعنه على حد قوله تعالى : « وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى » أى ولكن البر من اتقى أى إن الذى هو شر من ذلك ثوابا وجزاء جزاء من لعنه الله وغضب عليه الخ .

وفي هذا انتقال بهم من تبيكيت لهم بإقامة الحججة على هزئهم ولعيبهم بما ذكر - إلى ما هو أشد منه تبيكيتا وتشنيعا عليهم ، ذلك هو التذكير بسوء حال آبائهم مع أنبيائهم وما كان من جزاء الله إياهم على فسقهم وتمردهم بأشد ما جازى به الفاسقين الذين ظلموا أنفسهم - من اللعن والغضب والمسخ وعبادة الطاغوت .

أما اللعن فقد ذكر في عدة مواضع في القرآن الكريم مع بيان أسبابه ، والغضب الإلهي يستلزم اللعنة واللعنة تلزمه ، إذ هي منتهى المؤاخذة من غضب الله عليه .

وأما جعله منهم قردة وخنازير فقد تقدم في سورة البقرة « وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ قُلُوبَنَا لَهُمْ كُفُونًا قِرَدَةً خَاسِثِينَ » وسياق في سورة الأعراف « فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهِوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِثِينَ » وجهرة العلماء على أنهم مسخوا فكانوا قردة وخنازير على الحقيقة : وانقرضوا لأن المسوخ

لا يكون له نسل ، ونقل ابن جرير عن مجاهد أنه قال مسخت قلوبهم ولم يسخوا  
 قرده ، وإنما هو مثل ضربه الله لهم كما ضرب المثل بقوله « كَمَثَلِ الْخِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا »  
 ( أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل ) أى إن أولئك الذين اتصفوا  
 بما ذكر من الخايزى وشنيع الأمور شر مكانا إذ لا مكان لهم فى الآخرة إلا النار  
 وأضل عن سواء الطريق ووسطه الذى لا إفراط فيه ولا تفریط .

ومثل هؤلاء لا يحملهم على الاستهزاء بدين المسلمين وبصلاتهم وأذانهم  
 إلا الجهل وعمى البصيرة .

( وإذا جاءكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ) أى وإذا  
 جاءكم المنافقون من اليهود قالوا للرسول ولكم إننا آمننا بالرسول وما أنزل عليه ،  
 وحالهم الواقعة منهم أنهم دخلوا عليكم وهم مقيمون على الكفر والضلال وخرجوا  
 وهم كذلك ، فخالهم عند خروجهم كخالهم عند دخولهم لم يتحولوا عن كفرهم بالرسول  
 وما نزل من الحق ؟ ولكنهم قوم دأبهم الخداع والنفاق كما جاء فى سورة البقرة :  
 « وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ  
 بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ؟ » الآية

( والله أعلم بما يكتمون ) حين دخولهم من قصد تسقط الأخبار والتوسل إلى ذلك  
 بالنفاق والخداع وحين خروجهم من الكيد والمكر والكذب .

وفى قوله : وهم قد خرجوا به تأكيد لكونهم حين الخروج كما هم حين الدخول ،  
 واحتياج إليه لجيئه على خلاف المعروف لأن من كان يجالس الرسول صلى الله عليه  
 وسلم وأصحابه يسمع منه العلم والحكمة ، ويرى من أحسن أخلاقه ما يؤثر  
 فى القلوب ويلين قاسيها - يرجع عن سوء عقيدته ، وتصفو نفسه من كدورتها إلا إذا  
 كان متعننا مخادعا ، فإن الذكرى لاتنفعه ، والعظات والزواجر لا تؤثر فيه .

وقد كان الرجل يهجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يريد قتله حتى إذا رآه وسمع

كلامه انجابت عن قلبه ظلمات الكفر والفسوق وآمن به وأحبه ، وما شذ هؤلاء إلا لسوء نيتهم وفساد طريقتهم ، وذلك ما صرف قلوبهم عن التذكر والاعتبار ووجه همتهم إلى الكيد والخداع ، فلم يكن لديهم عقل يعي ولا يفقه مغزى الحكم والآداب . ( وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت ) أى وترى أيها الرسول كثيرا من هؤلاء اليهود الذين اتخذوا دينك هزوا ولعبا يسارعون في الظلم والعدوان وتجاوز الحدود التي ضربها الله للناس ، وفي أكل السحت وكل ما يعود على فاعله بالضرر في الدين والدنيا ، فهم غارقون في الإثم والعدوان ، فكلموا قدروا عليهما ابتدروهما ولم يتأخروا عن ارتكابهما .

( لبئس ما كانوا يعملون ) أى والله ما أقبح هذا العمل الذى يعمله هؤلاء من مسارتهم في كل ما يفسد الأخلاق ويدنس النفوس ويقوض نظم المجتمع ، وويل للأمة التي يعيش فيها أمثال هؤلاء ، فهلا نهتهم وزجرتهم عن أفعالهم ؟ ولم لم يقم أحد من علمائها وزهادها وعبادها بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر قبل أن يستفحل الشر ويم الضرو ولا زاجر ولا وازع ؟ وإلى هذا أشار بقوله :

( لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون ) قال في الكشف : لا يسمى العامل صناعا ولا العمل صناعة حتى يتمكن فيه العامل ويتدرب وينسب إليه وفاعل المعصية معه الشهوة التي تدعوه إليها وتحمله على ارتكابها ، وأما الذى ينهاه فلا شهوة معه في فعل غيره ، فإذا فرط في الإنكار على المعصية كان أشد إثما وأعظم جرما من الفاعل لها .

أى هلا ينهى هؤلاء الذين يسارعون فيما ذكر من المعاصى - أئمتهم في التربية والسياسة وعلماء الدين من الأحبار والرهبان ، لبئس ما كانوا يصنعون من الرضى بهذه الأوزار والخطايا ، وتركهم فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

روى عن ابن عباس أنه قال : ما في القرآن أشد توبيخا من هذه الآية - يريد بذلك أنها حجة على العلماء إذا هم قصرُوا في الهداية والإرشاد ، وتركوا النهي عن

الشور والاثام التى تفسد نظم الحياة للفرد والمجتمع ، فحق على العلماء والحكام أن يعتبروا بهذا النعى على اليهود ساسة وعلماء ومربين فيزدجروا ويعلموا أن هذه موعظة وذكري لهم إن تقعت الذكري .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعَنُوا بِمَا قَالُوا ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كَمَا أَنْزَلْنَا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَاءً هَا اللَّهُ ، وَيَسْمَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْفِينِ (٦٤) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ آقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦) .

### شرح المفردات

لئذ نعمة معان عدة : الجارحة والنعمة ، تقول لفلان عندي يد أشكره عليها كما قال تعالى : « أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ » أى ذوى القوة والعقول، والمملك كما يقال هذه الضيعة فى يد فلان أى ملكه وقال تعالى : « الَّذِى بِيَدِهِ عُرْدَةُ النَّكَاحِ » أى يملك ذلك ، وغلت أيديهم أى أمسكت وانقبضت عن العطاء ، يدها مبسوطتان أى هو كثير العطاء ، والحرب : ضد السلم فهى تصدق بالإخلال بالأمن والسلب والنهب ولو بغير قتل ، وبتهييج الفتن والإغراء بالقتل ، وإقامة التوراة : العمل بما فيها على أتم الوجوه سواء فى ذلك عمل النفس بالإيمان والإذعان ، وعمل الجوارح والقوى البدنية ؛

وقوله : لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم أى لوسع الله عليهم موارد الرزق ،  
والمقتصد المقتدلة فى أمر الدين فلا تغلو بالإفراط ولا تهمل بالتقصير .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السابقة بعض مخازيهم من مسارعتهم فى الإثم  
والعدوان وأكل السحت إلى نحو أولئك مما اختل به نظام الأفراد والجماعات  
وأصبحوا قوماً أنانية ، همه كل واحد منهم جمع المال واكتسابه على أى صورة كانت  
وبأى وجه جمع ، وقد أثر هذا فى أخلاقهم وأعمالهم أشد الأثر تشهد بذلك كتبهم ودينهم .  
ذكر هنا أفضع الخازى وأقبحها بجرأتهم على ربهم ووصفهم إياه بما ليس من  
صفته وإنكارهم جميل أياديه عندهم وكثرة صفحه عنهم وعفوه عن عظيم جرمهم  
توبيخاً لهم وتعريفاً لنبيه صلى الله عليه وسلم قديم جهلهم واحتجاجاً له بأنه مبعوث  
ورسول إذ أخبر بخفى علومهم ومكتون أخبارهم التى لا يعلمها إلا أخبارهم دون غيرهم  
من اليهود .

روى ابن إسحق والطبرانى عن ابن عباس قال « قال رجل من اليهود يقال له  
النباش بن قيس للنبي صلى الله عليه وسلم : إن ربك بخيل لا ينفق فأنزل الله ( وقالت  
اليهود ... ) الآية » وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أنها نزلت فى فتاح رأس يهود  
بنى قينقاع . وروى ابن جرير عن عكرمة مثله ، وروى عن مجاهد أنهم قالوا : لقد  
يمجدنا الله يابنى إسرائيل حتى جعل يده إلى نحره - يريدون أنه ضيق عليهم الرزق .  
وروى عن ابن عباس أنه قال : ليس يعنون بذلك أن يد الله موثقة ، لكنهم يقولون  
إنه بخيل أمسك ما عنده ، تعالى ربنا عما يقول الظالمون .

### الإيضاح

( وقالت اليهود يد الله مغلولة ) أى قال ذلك بعض منهم ونسبه إلى الأمة بناء  
على التكافل العام بين أفرادها ، وكونها كالشخص الواحد ، وأن الناس فى كل زمان

يعززون إلى الأمة ما يسمعون من بعض أفرادها وقد جرت سنة القرآن أن ينسب إلى المتأخرين ما قاله أو فعله سلفهم منذ قرون .

ولا عجب في صدور هذا القول من بعض الأشخاص منهم فإننا نرى من المسلمين في عصرنا مثله في الشكوى من الله عز وجل والاعتراض عليه عند الضيق وفي إبان المصائب .

( غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ) هذا دعاء عليهم بالبخل وانقباض الأيدي عن العطاء والإمساك عن الإنفاق في سبيل البر والخير ، وما زالوا أبخل الأمم فلا يكاد أحد منهم يبذل شيئاً إلا إذا كان يرى أن له من ورائه رجلاً كما دعا عليهم بالطرده والابعاد من رحمته وعنايته الخاصة بعباده المؤمنين .

وقيل إن المراد بغل الأيدي ربطها إلى الأعناق بالأغلال في الدنيا أو في النار أو فيهما ، فقد نقل عن الحسن البصرى أنه قال : يغلون في الدنيا أسارى وفي الآخرة معذبين بأغلال جهنم ، وقال في تفسير اللعنة : عذبوا في الدنيا بالجزية وفي الآخرة بالنار . ثم رد الله عليهم ما قالوه وأثبت لنفسه غاية الجود وسعة العطاء وأن كل مافي العالم من خير هو سجل من ذلك الجود فقال :

( بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ) أي بل هو الجواد المتصرف على وفق الحكمة وسننه في الاجتماع .

وتقتير الرزق على بعض العباد لا ينافي سعة الجود وسريانه في كل الوجود ، فإن له سبحانه الإرادة والمشيئة في تفضيل بعض الناس على بعض في الرزق على حسب السنن التي أقام بها نظام الخلق .

وعبر عن سعة الجود بيسط اليدين ، لأن الجواد السخي إذا أراد أن يبائع في العطاء جهد استطاعته يعطى بكلتا يديه كما قال الأعشى يمدح جواداً :

يدالك يدا جود ، فسكف مفيدة وكف إذا ما ضن بالزاد تنفق

( وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا ) أى إن هذا الذى أنزلناه عليك أيها النبى من خفى أمور هؤلاء اليهود المعاصرين لك ومن أحوال سلفهم وشئون كتبهم وحقائق تاريخهم - هو من أعظم الأدلة على نبوتك وكان ينبغي أن يجذبهم إلى الإيمان بك ، إذ لولا النبوة والوحى ما علمت من هذا شيئا ، فلا تعرف الماضى لأنك أى لم تقرأ الكتب ولا تعرف الحاضر لأنه من مكرم الخفى وكيدهم السرى - لكنهم لطغيانهم وتجاوزهم الحدود فى الكفر والحسد للعرب لم يجذبهم ذلك إلى الإيمان ولم يقرب إلا قليلا منهم ، ووالله ليزيدن ذلك كثيرا منهم طغيانا فى بغضك وعداوتك وكفرا بما جئت به ، وقال قتادة حملهم حسد محمد صلى الله عليه وسلم والعرب على أن تركوا القرآن وكفروا بمحمد ودينه .

( وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ) أى ألقينا بين اليهود والنصارى العداوة والبغضاء فهى لا تنقطع أبدا وهى على أشدها الآن فى روسيا وألمانيا وأقلها فى إنجلترا وفرنسا .

واليهود مع كونهم المديرين لأعظم الأعمال المالية ولهم النفوذ والتأثير فى السياسة وسائر شؤون الاجتماع مبعوضون من جماهير النصارى .

وقد ألف الكثير من الكتب فى فرنسا وغيرها فى التحريض عليهم ، وقد استأصوا شأقتهم فى ألمانيا وكثير من البلاد المجاورة لها بعد الحرب العظمى وأصبح هذا الشعب عندهم من أقبح شعوب العالم ، وكذلك العداوة بين بعض النصارى وبعض لا تزال آثارها تظهر بين حين وآخر لدى الدول الكبرى القوية فهى دائما فى استعداد لحرب يسحق بها بعضهم بعضا والحرب القائمة الآن بين الدول المسيحية الكبرى أكبر برهان على صدق ذلك .

( كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ) أى كلما هموا بالكيد للرسول وللمؤمنين الصادقين خذلهم الله وهم إما أن يخيبوا فى سعيهم ولا يتم لهم ما أرادوا من الإغراء والتحريض ، وإما أن ينصر الله رسوله وللمؤمنين .

والمعروف في كتب السيرة أن اليهود كانوا يغرون المشركين بالنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ومنهم من سعى لتجريض الروم على غزوهم ، ومنهم من كان يؤوى أعداءهم ويساعدهم ككعب بن الأشرف ، وما سبب ذلك إلا الحسد والعصبية وخوف الأبحار والرهبان من إزالة الإسلام لامتيازاتهم العالمة والدينية التي كانوا معروفين بها في بلاد الحجاز ، فكانت عداوتهم للمسلمين عداوة سياسية جنسية ليست من طبيعة الدين ولا روحه ، والدليل على ذلك أن اليهود كان لهم ضلع بعد ذلك مع المسلمين في الشام والأندلس لما رأوا من عدوهم وإزالة الجور والظلم الذي كان عليه الروم والقوط . وكذلك عداوة النصارى للمسلمين كانت سياسية وكانت على أشدها بينهم وبين الروم المستعمرين للبلاد المجاورة للحجاز كالأشام ومصر ، وكان نصارى البلاد أقرب ميلا إلى المسلمين بعد أن وثقوا بعدلهم وزال عنهم ظلم الروم مع كونهم من أهل دينهم ، وقد جرت العادة أن الناس يتبعون في العداوة أو المودة ما تمليه عليهم منافعهم ومصالحهم .

( ويسعون في الأرض فسادا ) أى إن ما يأتونه من عداوة النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وإيقاد الفتن والحروب لم يكن بقصد الإصلاح للأخلاق وشئون العمران والاجتماع بل كانوا يقصدون السعى في الأرض للفساد ويحاولون السكيد للمؤمنين ومنع اجتماع كلمة العرب ويودون ألا يخرجوا من الأمية إلى العلم والعرفان ، ولا من الوثنية إلى التوحيد حسدا لهم وحبا في دوام امتيازهم عليهم .

( والله لا يحب المفسدين ) في الأرض بل يبغضهم ، ومن ثم لا ينجح سعيهم ولا يصلح عملهم ، لأنهم يريدون أن يبطلوا حكمته تعالى في صلاح الناس وعمران البلاد .

ومن ثم أبطل سبحانه كل ما كاده أولئك القوم للنبي صلى الله عليه وسلم والعرب والإسلام ، وأصلح بالإسلام ما كانوا خربوه من البلاد ونصر المسلمين على كل

من ناوأم ، وكذلك هم تركوا التوراة والإنجيل وهما قد أنزلا لهداية الناس إلى الصلاح والإصلاح فزال ملكهم وسلط الله عليهم غيرهم .

( ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ) أى ولو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والحارم لكفرنا عنهم سيئاتهم التي اقترفوها ومحونا عنهم ذنوبهم ولم نقضحهم بها ولأدخلناهم جنات ينعمون بها في الآخرة .

وفى ذلك إعلام من الله بعظم معاصي اليهود والنصارى وكثرة سيئاتهم ، ودلالة على سعة رحمة الله وفتحه باب التوبة لكل عاص وإن عظمت معاصيه وبلغت مبلغ سيئات اليهود والنصارى ، وإخبار بأن الإيمان لا ينجى إلا إذا شفع بالتقوى ، ومن ثم قال الحسن هذا العمود فأين الأطناب ؟ .

( ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ) أى ولو أقاموا ما فى التوراة والإنجيل المنزلى بنور التوحيد المبشرين بالنبي الذى يأتى من أبناء إسماعيل والذى قال فيه عيسى عليه السلام :

إنه روح الحق الذى يعلمهم كل شىء ، وأقاموا ما أنزل إليهم من ربهم على هذا النبي الكريم الذى بشرت به كتبهم لوسع الله عليهم رزقهم ولأعظمتهم السماء مطرها وبركتها والأرض نباتها وخيرها كما قال تعالى : « لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » .

وفى هذا تنبيه إلى أن ما أصابهم من الضنك والضييق إنما هو من شؤم جناباتهم لا من قصور فى فيض الله وعظيم عطائه ، وإشارة إلى أنهم لو أقاموها ما عاندوا النبي ذلك العناد ، فالدين عندهم إنما كان أمانى يتمنونها وبدعا وتقاليد يتوارثونها ، فهم بين غلو وتقصير وإفراط وتفریط .

( منهم أمة مقتصدّة وكثير منهم ساء ما يعملون ) أى منهم جماعة معتدلة فى أمر دينها لا تفرط ولا تهمل وهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام وأضرابه من

اليهود ، والنجاشي وأصحابه من النصارى ، وكثير منهم أجلاف متعصبون ساء ما يعملون من كفرهم بالله واجتراح المعاصي ، ويزعم النصارى منهم أن المسيح ابن الله ويكذبون بمحمد صلى الله عليه وسلم ويكذب اليهود بعيسى ومحمد صلى الله عليهما .  
 والمعتدلون لا تخلو منهم أمة لكنهم يكثرون في طور صلاح الأمة وارتقائها ، ويقولون في طور فسادها وانحلالها ولا تهلك الأمم إلا بكثرة من يعمل السوء من أشرارها ، وقلة من يعمل الصالحات من أ خيارها ، وهؤلاء المعتدلون هم السابقون إلى كل صلاح وإصلاح يقوم به المجددون من الأنبياء في مختلف العصور ، ومن ثم قبل هذا الدين الجديد هؤلاء المقتصدون من أهل الكتاب ومن غيرهم فكانوا مع إخوانهم العرب من المجددين للتوحيد والفضائل والآداب ، والمحبين للعلوم والفنون .  
 روى ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :  
 « يوشك أن يرفع العلم ، قلت : وكيف وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا ؟ فقال :  
 شكلك أمك يا ابن نفير ، إن كنت لأراك من أققه أهل المدينة ، أو ليست التوراة والانجيل بأيدي اليهود والنصارى ، فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله ، ثم قرأ : ( ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل ) الآية » .

وأخرج أحمد وابن ماجه عن زياد بن لبيد قال : « ذكر النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً فقال : وذلك عند ذهاب العلم ، قلنا يا رسول الله : وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة ؟ قال : شكلك أمك يا ابن أم لبيد ، إن كنت لأراك من أققه رجل بالمدينة ، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والانجيل ولا ينتفعون مما فيها بشيء » .

ومغزى هذا أن العبرة في الأديان هو العمل بها والاهتداء بهديها ، وقد كان أهل الكتاب في ذلك العصر أبعد ما كانوا عن هداية دينهم مع شدة عصبيتهم الجنسية له ، كما هو شأن المسلمين اليوم .

وهذه الشهادة لبعض أهل الكتاب بالقصد والاعتدال لها نظائر في آيات أخرى كقوله تعالى : « وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ » وقوله « وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِفِطْرَةِ يُودُوهُ إِلَيْكَ » الآية .

يَأْيَاهَا الرَّسُولُ بَلَغَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُتَّقُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلِيُزِيدَنَّا كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) .

### الإيضاح

( يَأْيَاهَا الرَّسُولُ بَلَغَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ) أى يَأْيَاهَا الرَّسُولُ بَلَغَ إِلَى الْخَلْقِ جَمِيعٍ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ مَا لَكَ أَمْرُكَ وَمِبلَغُكَ إِلَى كَمَالِكَ ، وَلَا تَحْشُ فِي ذَلِكَ أَحَدًا وَلَا تَحْضُ أَنْ يَنْتَالِكَ مِنْ ذَلِكَ مَكْرَهُ .

( وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ) أى وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا أَمَرْتُ بِهِ مِنَ التَّبْلِيغِ لِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ بَأْنِ كَسْبَتِهِ وَلَوْ مَوْقِفًا خَوْفًا مِنَ الْأَذَى بِالْقَوْلِ أَوْ بِالْفِعْلِ - فَحَسْبُكَ جَرْمًا أَنْكَ مَا بَلَغْتَ الرِّسَالَةَ وَلَا قَتَ بِمَا بَعَثْتَ لِأَجَلِهِ ، وَهُوَ تَبْلِيغُ النَّاسِ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى « إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ » .

والحكمة في التصريح بالأمر بالتبليغ وتأكيد به جعل كتابان بعضه ككتابان

كله ، مع العلم بأن الرسل صلوات الله عليهم معصومون من كتمان شيء مما أمرهم الله بتبليغه وإلا بطلت حكمة الرسالة بعدم ثقة الناس بالتبليغ - الحكمة في ذلك بالنظر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم إعلامه بأن التبليغ حتم لا يجوز كتمانه ولو إلى حين بتأخير شيء عن وقته على سبيل الاجتهاد ، ولولا هذا النص لكان للرسول أن يجتهد بتأخير بعض الوحي إلى أن يقوى استعداد الناس لقبوله ولا يحملهم سماعه على رده وإيذاء الرسول لأجله .

والحكمة بالنسبة إلى الناس أن يعرفوا هذه الحقيقة بالنص فلا يعذروا إذا اختلفوا فيها باختلاف الرأي والفهم ، ومن هذا تعلم أن ما نقل من الأقوال والآراء من جواز كتمان بعض الوحي غير القرآن عن كل الناس أو عن جمهورهم لا يتفق مع الدين في شيء ولا يعول على ما رووه من الأخبار الضعيفة والأحاديث الموضوعة في هذا الباب .  
والحق الذي لا شبهة فيه أن الرسول بلغ جميع ما أنزل إليه من القرآن وبينه ولم يخص أحدا بشيء من علم الدين ، وأنه لا امتياز لأحد عن أحد في علم الدين إلا بفهم القرآن فهما يتوسل إليه بعلم السنة وآثار علماء الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار في الصدر الأول ، وبمعرفة مفردات اللغة العربية وأساليبها ، وبمعرفة علوم الكون وشئون البشر وسنن الله في الخلق .

روى ابن مردويه عن ابن عباس قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي آية من السماء أنزلت أشد عليك ؟ فقال : كنت بمنى أيام موسم واجتمع مشركو العرب وأفناء الناس في الموسم ، فترز على جبريل فقال : ( يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ) الآية قال - فقامت عند العقبة فقلت : أيها الناس من ينصرنى على أن أبلغ رسالات ربي ولكم الجنة ؟ أيها الناس قولوا لا إله إلا الله وأنا رسول إليكم ، تفلحوا وتنجحوا ولكم الجنة - قال صلى الله عليه وسلم فما بقي رجل ولا أمة ولا صبي إلا يرمون على بالتراب والحجارة

ويقولون : كذاب صابئ . فعرض على عارض فقال : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعامون ، وانصرني عليهم أن يجيبوني إلى طاعتك ، فجاء العباس عمه فأقذه منهم وطردهم عنه . »

( والله يفصمك من الناس ) أى يمنعك من فتكهم مأخوذ من عصام القرية وهو ما توكأ به أى يربط به فها من سير جلد أو خيط ، والناس هم الكفار الذين يتضمن تبليغ الوحي بيان كفرهم وضلالهم وفساد عقائدهم وأعمالهم والنعمي عليهم وعلى سلفهم ، وكان ذلك يغيظهم ويحملهم على الإيذاء ، ومن ثم كان المشركون يتصدون لإيذائه صلى الله عليه وسلم بالقول والفعل ، وأثمروا به بعد موت أبي طالب وقرروا قتله في دار الندوة ولكن الله تعالى عصمه منهم وكذلك فعل اليهود بعد الهجرة .

روى الترمذى وأبو الشيخ والحاكم وأبو نعيم والبيهقى عن بضعة رجال من الصحابة « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحرس في مكة قبل نزول هذه الآية فقال : يا عم إن الله قد عصمنى لا حاجة لى إلى من تبعث . »

وقد وضعت هذه الآية وهى مكية فى سياق تبليغ أهل الكتاب وهو مدنى لتدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عرضة لإيذائهم أيضا وأن الله تعالى عصمه من كيدهم ولتذكر بما كان من إيذاء مشركى قومه من قبلهم .

( إن الله لا يهدي القوم الكافرين ) أى إنه تعالى لا يهدى أولئك القوم الكافرين الذين هم بصدد إيذائك على التبليغ إلى ما يريدون بل يكونون خائنين وتم كلات الله تعالى حتى يكمل بها الدين .

( قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ) أى قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى فيما تبلغهم عن الله تعالى ( لستم على شيء ) يعتد به من أمر الدين ولا ينفكم الانتساب إلى موسى وعيسى والنبیین .

( حتى تقيموا التوراة والإنجيل ) فيما دعيا إليه من التوحيد الخالص والعمل الصالح وفيما بشر به من بعثة النبي الذي يجيء من ولد إسماعيل الذي سماه المسيح روح الحق والبار قليط .

( وما أنزل إليكم من ربكم ) على لسان محمد وهو القرآن المجيد فهو الذي أكل به دين الأنبياء والمرسلين على حسب سنن الله في الكون .

( وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا ) أى وأقسم بأن الكثير من أهل الكتاب لا يزيدهم القرآن الذى أكل الله به الدين المنزل على محمد خاتم النبيين إلا غلوا فى تكذيبهم وكفرا على كفرهم ، لأنهم لم ينظروا فيه نظرة إنصاف ، بل نظروا إليه بعين العصبية والعدوان إذ كانوا على تقاليد وثنية وأعمال وعادات سخيفة ، فلم يكن لهم من الدين الذى يدينون به ما يقربهم إلى فهم حقيقة الإسلام ليعلموا أن دين الله واحد وأن ما سبق بدء وهذا إتمام .

أما غير الكثير وهم الذين حافظوا على التوحيد ولم تحجبهم عن نور الحق شتى التقاليد فهم الذين ينظرون إلى القرآن بعين البصيرة فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأن من أنزل عليه هو النبي المبشر به فى كتبهم فيسارعون إلى الإيمان به على حسب حظهم من سلامة الوجدان واطمئنان النفس بما لديها من العلم والعرفان . ( فلا تأس على القوم الكافرين ) قال الراغب : الأسى الحزن ، وأصله إتباع الفئات بالنم ، أى فلا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم فإن ضرر ذلك راجع إليهم لا إليك ولا إلى المؤمنين ، وحسبك الله ومن اتبعك من مؤمنى قومك ومن مؤمنى أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره من علمائهم .

والعبرة للمسلم من هذه الآية أن يعلم أنه لا يكون على شيء يعتد به من أمر الدين حتى يقيم القرآن وما أنزل إليه من ربه فيه ويهتدى بهديه ، فحجة الله على عباده واحدة فإذا كان الله لا يقبل من أهل الكتاب قبلنا ماورثوه من تلك التقاليد التى صدتهم عما عندهم من وحى الله ، فإنه لا يقبل منا مثل ذلك مع حفظنا لكتابتنا

والناس عن مثل هذا غافلون و إلى حكمة الدين ومقاصده لا ينظرون ، ويحسبون أنهم على شيء ، ألا إنهم هم الكاذبون .

( إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) أى إن الذين صدقوا الله ورسوله والذين دخلوا اليهودية والصابئين الذين يعبدون الملائكة ويصلون إلى غير القبلة والنصارى ، من أخلص منهم الإيمان بما ذكر دواما وثباتا كما فى المؤمنين المخلصين أو إيجادا وإنشاء كما هو حال المنافقين وغيرهم من الطوائف الأخرى ، فلا خوف عليهم فيما قدموا عليه من أهوال القيامة ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من لذات الدنيا وعيشها بعد معايتتهم ما أكرمهم الله به من جزيل ثوابه .

وفى الآية إيماء إلى أن أهل الكتاب لم يقيموا دين الله لا الوسائل منه ولا المقاصد ، فلام حفظوا نصوص الكتب كلها ولا هم تركوا ما عندهم منها على ظواهرها ولا هم آمنوا بالله واليوم الآخر على الوجه الذى كان عليه سلفهم الصالح ولا هم عملوا الصالحات كما كانوا يعملون ، إلا قليلا منهم عذبوا على توحيد الله ورموا بالزندقة لرفضهم تقاليد الكنائس والبدع التى شرعها الأحرار والرهبان ، كما أن فيها ترغيبا لمن عدا من ذكروا فى الإيمان والعمل الصالح ليكون لهم من الجزاء مثل ما لأولئك .

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصَيْرِهِمْ عَلِيمٌ (٧١) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ

مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ، انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أخذ الميثاق على بنى إسرائيل وبعث فيهم النقباء أعاد التذكير به هنا مرة أخرى وبين عتوهم وشدة ترددهم وما كان من سوء معاملتهم لأنبيائهم .

### الإيضاح

( لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون ) الميثاق هو العهد الموثق ، وقد أخذ الله عليهم العهد فى التوراة بتوحيده واتباع الأحكام التى شرعها لهدى خلقه وتحليمهم بحلى الفضائل ومكارم الأخلاق ، وقد نقضوا هذا الميثاق كما تقدم أول السورة وعاملوا الرسل تلك المعاملة - وهو أنه كلما جاءهم رسول بشيء لا تهواه أنفسهم عاملوه بأحد الأمرين إما التكذيب المستلزم للاعراض والعصيان وإما القتل وسفك الدماء .

وخلاصة ذلك - إنهم بلغوا من الفساد واتباع الأهواء أخشنها مركبا وأشدّها

عتوا وضلالا حتى لم يعد يؤثر في قلوبهم وعظ الرسل ولا هديهم بل صار ذلك مغريا لهم بزيادة الكفر والتكذيب وقتل أولئك الهداة البررة والسادة الأخيار .

( وحسبوا ألا تكون فتنة ) الفتنة الاختبار بشدائد الأمور كنتسلط الأمم القوية عليهم بالقتل والتخريب والاضطهاد أى وظنوا أننا قويا تمكن من نفوسهم أنه لا تقع لهم فتنة بما فعلوا من الفساد لأنهم كانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه ويعتقدون أن نبوة أسلافهم وآبائهم تدفع عنهم العقاب الذى يستحقونه بسبب ذلك القتل والتكذيب .

( فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم ) أى فعموا عن آيات الله التى أنزلها فى كتبه مرشدة إلى عقابه للأمم المفسدة الظالمة ، وعموا وضعه من السنن فى خلقه مصدقا لذلك ، وصموا عن سماع المواعظ التى جاءهم بها أولئك الرسل وأنذروهم بالعقاب إذا هم خالفوها ونقضوا الميثاق وخرجوا عن هدى الدين ، وظلموا أنفسهم واتبعوا أهواءهم وساروا فى غيرهم ، وانهمكوا فى ضلالهم ، فسلط الله عليهم من سامهم الخسف وأوقع بهم البوار والدمار ، فجاس البابليون خلال ديارهم وأحرقوا المسجد الأقصى ونهبوا أموالهم وسبوا أولادهم ونساءهم وسلبوهم أموالهم وثلوا عروش ملكهم ، ثم رحمهم الله وتاب عليهم حين أقلعوا عن الفساد وأعاد إليهم ملكهم وعزهم على يد ملك من ملوك الفرس إذ جاء إلى بيت المقدس وعززه ورد من بقى من بنى إسرائيل فى أسر بختنصر إلى وطنهم ورجع من تفرق منهم فى الأقطار فاستقروا وكثروا وكانوا كأحسن ما كانوا .

ثم عموا وصموا مرة أخرى وعادوا إلى ظلمهم وفسادهم فى الأرض وقتلوا الأنبياء بغير حق فقتلوا زكريا وإشعيا وأرادوا قتل عيسى عليه السلام ، فسلط الله عليهم الفرس ثم الروم ( الرومانيين ) فأزالوا ملكهم واستملاهم .

وفى قوله ( كثير منهم ) إشارة إلى أن عمى البصيرة والنصم عن المواعظ لم يكن

للجميع بل كان للكثير منهم ، والله تعالى يعاقب الأمم بذنوبها إذا كثرت وشاعت فيها إذ العبرة بالغالب لا بالأقل النادر الذي لا يؤثر في صلاح ولا فساد ومن ثم قال تعالى : « وَأَتَقُوا فِتْنَةً لَأَنْصِبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

( والله بصير بما يعملون ) نبيه وخاتم أنبيائه من الكيد والمكر وتدمير الإيقاع به وتأليب القبائل والشعوب المختلفة لتكون يدا واحدة للفتك به ، وما سبب ذلك إلا اتباعهم للهوى وأنهم عموا وصموا مرة أخرى فصاروا لا يبصرون ما جاء به من النور والهدى ولا يسمعون ما يتلوه عليهم من الآيات وسيعاقبهم الله على ذلك بمثل ما عاقبهم به من قبل وينكل بهم أشد النكال ، ويذيقهم أنواع الوبال .  
وبعد أن عدد قبائح اليهود ومخازيهم شرع يفصل قبائح النصارى ويبطل أقوالهم الفاسدة وآراءهم الزائفة ، فقال :

( لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ) أى أقسم إن هؤلاء الذين ادعوا أن الله هو المسيح بن مريم - قد كفروا وضلوا ضلالا بعيدا ، إذ هم في إطرأته ومدحه غلوا أشد من غلوا اليهود في الكفر به وتحقيره وقولهم عليه وعلى أمه الصديقة بهتاناً عظيماً ؛ وقد صارت هذه المقالة هي العقيدة الشائعة عندهم ، ومن عدل عنها عدّ مارقا من الدين فقالوا إن الإله مركب من ثلاثة أصول يسمونها ( الأقانيم الثلاثة ) وهي الآب والابن وروح القدس ، فالمسيح هو الابن والله هو الآب وقد حل الآب في الابن واتحد به فكوّن روح القدس ، وكل واحد من هذه الثلاثة عين الآخرين .

وخلاصة ذلك - الله هو المسيح ، والمسيح هو الله كما يزعمون .  
( وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ) أى والحال أن المسيح قال لهم ضد ما يقولون : فقد أمرهم بعبادة الله وحده ، معترفا بأنه ربه وربهم ودعا بنى إسرائيل الذين أرسل إليهم إلى عبادة الله وحده ، ولا يزال هذا الأمر محفوظا في الأناجيل التي كتبت ليبيان بعض سيرته وتاريخه ، ففي انجيل يوحنا

(وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته ) فدين المسيح مبني على التوحيد المحض وهو دين الله الذي أرسل به جميع رسله .

وفي هذه المقالة تنبيه إلى ماهو الحجة القاطعة على فساد قول النصارى لأنه عليه السلام لم يفرق بين نفسه وغيره في أن دلائل الحدوث ظاهرة على الجميع .  
وبعد أن أمرهم عليه السلام بالتوحيد الخالص ، أتبعه بالتحذير من الشرك والوعيد عليه ، فقال :

( إنه من يشرك بالله فقد حرم عليه الجنة وماواه النار وما للظالمين من أنصار )  
أى إن كل من يشرك بالله شيئاً من ملك أو بشر أو كوكب أو حجر أو نحو ذلك فيجعله نداً له أو متحداً به أو يدعو له لطلب نفع أو دفع ضرر أو يزعم أنه يقربه إليه زلنى فيتخذة شفيعاً ليؤثر في إرادته تعالى وعلمه ، ويحمله على شيء غير ما سبق به علمه وخصسته إرادته في الأزل - من يفعل ذلك فإن الله قد حرم عليه الجنة في سابق علمه ، وبمقتضى شرعه الذى أوحاه إلى جميع رسله ، فلا مأوى له إلا النار التى هى دار العذاب والنل والهوان - وما للظالمين لأنفسهم بشركم بالله من نصير ينصرهم ولا شفيع يتقدم مما يحل بهم « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ » .

وفي هذا إيماء إلى أن النصارى كانوا يتكلمون على كثير من القديسين ، إذ كانت وثنية الشفاعة قد فشت فيهم وإن لم تكن من أصل دينهم .

( لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ) أى لقد كفر الذين قالوا إن الله خالق السموات والأرض وما بينهما - ثالث أقانيم ثلاثة ، أب والد غير مولود وابن مولود غير والد ، وزوج متبعة بينهما .

والمخلاصة — إن الفرق ثلاثة : (١) إن إلههم ثالث ثلاثة (٢) إن الله هو المسيح بن مريم (٣) إن المسيح هو ابن الله وليس هو الله .

والتأخرون من النصارى يقولون بالأقانيم الثلاثة وأن كل واحد منها عين الآخر فالآب عين الابن وعين روح القدس ، ولما كان المسيح هو الابن كان عين الآب وروح القدس أيضا ، وقد ذكرنا فيما سلف أن النصارى أخذوا عقيدة التثليث من قدماء الوثنيين .

ثم رد الله عليهم ما قالوه بلا روية ولا بصيرة ، فقال :  
( وما من إله إلا إله واحد ) أى لا يوجد إله إلا من اتصف بالوحدانية وهو الإله الذى لا تركيب فى ذاته ولا فى صفاته ، فليس ثم تعدد ذوات وأعيان ولا تعدد أجناس وأنواع ولا تعدد جزئيات وأجزاء .

( وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ) أى وإن لم ينتهوا عن قولهم بالتثليث ويتركوه ، ويعتصموا بعروة التوحيد ويعتقدوه ، فوالله ليصيبينهم عذاب شديد يوم القيامة جزاء كفرهم .

وفى الآية إيماء إلى أن هذا العذاب لا يمس إلا الذين كفروا منهم خاصة دون من تاب وأناب إلى الله تعالى ورجع عن عقيدة التثليث وغيرها .  
ثم تعجب من حالهم بإصرارهم على التثليث بعد أن ظهرت لهم البيئات وقامت عليهم الحجج المبطللة له والنذر بالعذاب المرتب عليه ، فقال :

( أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ؟ ) أى أيسمعون ما ذكر من التنفيد لأرائهم والوعيد عليها ، ثم لا يحملهم ذلك على التوبة والرجوع إلى التوحيد واستغفار الله عما فرط منهم ، والحال أن ربهم واسع الرحمة عظيم المغفرة يقبل التوبة من عباده ويغفر لهم ما فرط من الزلات إذا هم آمنوا وأحسنوا واتقوا وعملوا الصالحات .

( ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ) أى ليس المسيح إلا رسولا من الرسل الذين بعثهم الله لهداية عباده قد مضت من قبله رسل اختصهم الله مثله بالرسالة وأيدهم بالآيات ، وأمه صديقة

فلها في الفضل مرتبة تلي مرتبة الأنبياء والمرسلين ، ونحو الآية قوله : « وَصَدَقْتُ بِكَلِمَاتِ رَبِّيَّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا أَنَّهَا مِنَ الْقَائِمِينَ » .

أما حقيقتهم النوعية والجنسية فهي مساوية لحقيقة غيرها من أفراد نوعها وجنسها ، فهما كالانسان الطعم ليقما بنيتهما ويمدا حياتهما لثلاينحل بدنهما ويهلكاه وكذلك يعرض لهما ما يستلزمه أكل الطعم من الحاجة إلى دفع الفضلات فلا يمكن أن يكون كل منهما إلها خالقا ولا ربا معبودا ، ومن السفه أن يحتقر الإنسان نفسه ويحتقر جنسه ويرفع بعض المخلوقات المساوية له في الماهية والمشخصات والممتازة بميزات عرضية فيجعل نفسه عبدا لها ويسميا آلهة أو أربابا .

وبعد أن بين حالهما بيانا لا يحوم حوله شائبة من الريب ، تعجب من حال من يدعى لهما الربوبية ولا يرعوى عن غيه وضلاله ولا يتأمل فيما هو عليه من إفن الرأي والخطأ ، فقال :

( انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أني يؤفكون ) الآيات هي الدلائل القاطعة ببطان ما يدعون ، ويؤفكون أي يصرفون عن التأمل فيها لسوء استعدادهم وخبث نفوسهم .

أي انظر أيها السامع نظرة عقل وفكر ، كيف نبين لهؤلاء النصارى الآيات والبراهين البالغة أقصى الغايات في الوضوح على بطلان ما يدعون في أمر المسيح ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها ، وكيف لا ينتقلون من مقدماتها إلى نتائجها ومن مبادئها إلى غاياتها فكأنهم فقدوا عقولهم وصارت أفئدتهم هواء .

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرِ الْحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا

عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) لَعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ  
 دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا  
 لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى  
 كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ  
 سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ  
 بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ ، وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ  
 فَاسِقُونَ (٨١) .

### شرح المفردات

الغلو: الإفراط وتجاوز الحد، والأهواء: الآراء التي تدعو إليها الشهوة دون الحجة،  
 واللعن: الحرمان من لطف الله وعنايته، يتولون الذين كفروا أي يوالونهم ويزينون  
 لهم أهواءهم .

### الإيضاح

(قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا؟) أي قل أيها الرسول  
 لطلوآء النصارى وأمثالهم ممن عبدوا غير الله - أتعبدون من دونه أي متجاوزين  
 عبادته وحده - ما لا يملك لكم ضرا تخشونه أن يعاقبكم به إذا أتم تركتم عبادته  
 ولا يملك لكم نفعا ترجون أن يجزيكم به إذا عبدتموه؟ .

وفي هذا إيماء إلى دحض مقالاتهم بالحجة والدليل، فإن اليهود وقد كانوا يعادون  
 المسيح ويقصدونه بالسوء لم يقدر على الإضرار بهم، وأنصاره وصحابه مع شديد  
 محبتهم له لم يستطع إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم، والعاجز عن الضر والنفع  
 كيف يعقل أن يكون إلها؟

وإذ كان قول النصارى في المسيح من أشد أنواع الغلو في الدين بتعظيم الأنبياء فوق ما يجب أن يكون لهم من التعظيم وكان إيذاء اليهود له وسعيهم في قتله من الغلو في الجحود على تقاليد الدين التي ابتدعوها واتباع أهوائهم بلا علم ، وكان هذا الغلو هو الذي دعاهم إلى قتل زكريا وإشعيا قال تعالى :

( يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ) سواء السبيل وسطه الذي لا غلو فيه ولا تفریط وهو الإسلام ، وضلالهم ترك شريعتهم واتباعهم الأهواء الفاسدة الموافقة لشهوات النفوس الجارحة بها إلى الحصول على اللذات والإعراض عن الدين جانبا وضلالهم عنه هو إعراضهم عن اتباعه .

نهى الله تعالى أهل الكتاب الذين كانوا في عصر التنزيل عن الغلو الذي كان عليه من قبلهم من أهل ملتهم ، وعن التقليد الذي كان سبب ضلالهم ، إذ هم قد اتبعوا أهواءهم وتركوا سنن الرسل والنبیین والصالحين من قبلهم ، لأن كل أولئك كانوا موحدین وكانوا يتكفرون بالشرك والغلو في الدين ، فعقيدة التثليث وتلك الشعائر الكنسية المستحدثة من بعدهم كشرع عبادات لم يأذن بها الله ، وتحريم ما لم يحرمه الله من الطيبات بل حرمها القسيسون والرهبان على أنفسهم وعلى من اتبعهم مبالغة في التنسك والزهد أورياء وسمعة ، وجعل الأنبياء والصالحين أربابا يتفنون ويضرون بسلطة غيبية لهم فوق سنن الله في الأسباب والمسببات الكسبية ، ولذا جعلوهم آلهة يعبدون من دون الله أو مع الله .

كل أولئك قد ضلوا به وأضلوا كثيرا ممن اتبعهم فيه وسيكون سبب شقائهم وعذابهم في الآخرة إن لم يرجعوا عنه وينيبوا إلى الله منه .

وبعد أن بين الله ضلالهم وإضلالهم ذكر أسباب ذلك وأرشد إلى ما أخذهم به ، فقال :

( لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك

بما عصوا وكانوا يعتدون) أى لعن الله الذين كفروا من بنى إسرائيل فى الزبور والإنجيل على لسان هذين النبيين فقد لعن داود عليه السلام من اعتدى منهم فى السبت أو لعن العاصين المعتدين عامة ، وكذلك لعنهم عيسى عليه السلام وهو آخر أنبيائهم ، وما سبب ذلك اللعن الذى امتد واستمر إلتامديهم فى العصيان وتمردهم على الأديان كما يدل عليه قوله : وكانوا يعتدون .

ثم بين الله سبحانه وتعالى أسباب استمرارهم على العصيان وتعدي الحدود فقال : ( كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ) أى كان من دأبهم ألا ينهى أحد منهم أحدا عن منكر يقتضيه مهما قبح وعظم ضرره ، والنهى عن المنكر هو حفاظ الدين وسياج الفضائل والآداب ، فإذا تجرأ المستهترون على إظهار فسقهم وفجورهم وراحم الغوغاء من الناس قلوبهم فيه وزال قبحه من نفوسهم وصار عادة لهم وزال سلطان الدين عن قلوبهم وتركت أحكامه وراءهم ظهريا .

وفى الآية إيماء إلى فسو المنكرات فيهم ، وانتشار مفاسدها بينهم ، إذ لولا ذلك ما كان ترك التناهى شأننا من شئونهم وعادة من عاداتهم .

( لبئس ما كانوا يفعلون ) هذا تقييح لسوء فعلهم وتعجب منه وذم لهم على اقراراف بعضهم للمنكرات وإصرارهم عليها وسكوت آخرين ورضاهم بها ، وفى سوق الآية إرشاد للمؤمنين وعبرة لهم حتى لا يفعلوا فعلهم فيكونوا مثلهم ويحل بهم من غضب الله ولعنه مثل ما حل ببنى إسرائيل .

روى أبو داود والترمذى عن ابن مسعود أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض - ثم قال : ( لعن الذين كفروا - إلى قوله فاستقون ) ثم قال صلى الله عليه وسلم : كلا ، والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم

وإنما طهرته (تعطفنه) على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قسرا أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما لعنهم .

وأخرج الخطيب من طريق أبي سلمة عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والذى نفس محمد بيده ليخرجن من أمتى ناس من قبورهم في صورة القردة والحنازير بما داهنوا أهل المعاصي وكفوا عن نهيهم وهم يستطيعون » .

والآثار في هذا الباب كثيرة وفيها وعيد عظيم على ترك التناهي ، فيل من مذكر وإلى متى نمرض عن أوامر ديننا ولا نرعوى عن غينا ولا نتبع أوامر شرعنا ؟ .

وبعد أن ذكر الله لنبية أحوال أسلافهم ذكر له أحوال حاضرهم مما يدل على رسوخ تلك الملكات فيهم ، فقال :

( ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا ) أى ترى أيها الرسول الكريم كثيرا من بنى إسرائيل يتولون الذين كفروا من مشركى قومك ويحالفونهم عليك ويخرضونهم على قتالك ، وأنت تؤمن بالله وبما أنزله على رسله وأنبيائه وتشهد لهم بصدق الرسالة ، وأولئك المشركون لا يؤمنون بكتاب ولا رسول ولا يعبدون إلها واحدا ، ولولا اتباع الهوى وتزيين الشيطان لهم أعمالهم ما فعلوا ذلك ولا دار هذا بخاطرهم وما استجبوا العمى على الهدى ، ومن يضل الله فاله من هاد .

وقد روى أن كعب بن الأشرف وأصحابه ذهبوا إلى مكة واستجاشوا المشركين على الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن لم يتم لهم ما أرادوا إذ لم يلبثوا لهم دعوة ولا استجابوا لهم كلمة .

( لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ) أى لبئس شيئا قدموه لأنفسهم في آخرتهم - الأعمال التى أوجبت سخط الله وعظيم غضبه ، وسيجزون بها شر الجزاء إذ سيحيط بهم العذاب ولا يجدون عنه مصرفا ويخلدون فى النار أبدا ، فالنجاة منه إنما تكون برضا الله عن عبده ، وهم لم يعملوا إلا ما يوجب سخطه وشديد غضبه .

( ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ) أى ولو كان أولئك اليهود الذين يتولون الكافرين من مشركى العرب - يؤمنون بالنبي الذى يدعوون اتباعه وهو موسى عليه السلام وما أنزل إليه من الهدى والبيئات ، لما اتخذوا أولئك الكافرين ممن يعبدون الأوثان والأصنام أولياء وأنصارا إذ كانت العقيدة الدينية تصدمهم عن ذلك وتدفع عنهم هذه الآصار والآثام التى يقترفونها .  
والخلاصة - إن هذه الولاية بين اليهود والمشركين لم يكن لها من سبب إلا اتفاق الفريقين على الكفر بالله ورسوله والتعاون على حربه وإبطال دعوته والتنكيل بمن آمن به .

ويرى مجاهد أن المراد بالذين كفروا المنافقون أى إن أولئك المنافقين كفار ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه كما يدعوون ما اتخذهم اليهود أولياء لهم وفتولهم إياهم من أعظم الأدلة على أنهم يسترون الكفر ويظهرون الإيمان نفاقا ، وكان اليهود يتولون المشركين والمنافقين جميعا لاشتراكهم فى عداوة النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

وقد بين الله أسباب هذه الألفة والعلّة الجامعة بينهم فقال :

( ولكن كثيرا منهم فاسقون ) أى ولكن كثيرا منهم متوردون فى النفاق خارجون عن حظيرة الدين لا يريدون إلا الرياسة والجاه ويسعون إلى تحصيلهما من أى طريق قدروا عليه ، ومتى سار الكثير من الأمة على طريق تبعه الباقون إذ لا عبرة بالقليل فى سيرة الأمة وأعمالها .

وكان الفراغ من مسودة تفسير هذا الجزء فى الليلة الثالثة من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية بحلوان من أرباض القاهرة قاعدة الديار المصرية ، والله الحمد أولا وآخرا ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .